حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

العدد الثاني والعشرون / السنة السادسة / (يناير - فبراير) ٢٠١١
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين

الدوّامات والطفل..!

يا طفلي العزيز، يا عنوان البراءة،
أبدًا لن تُرَاع،
فدوامات الليل لن تطالك،
وبزئيرها الفوَّار لن تنالك..!
ففي قلبها نور فجر يلوح،
يبدد ظلمتها...
فأيام الله آتية آتية...
فالأفلاك لها منتظرة، ولنورها تواقة،
ولضوء النهار شَوَّاقة...!

***

بسم الله الرحمن الرحيم

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

الفكر الاستيعابي

يبقى الفكر الاستيعابي لعناصر الوجود في وحدة معرفية واحدة، هي الأساس الذي يبني عليه الأستاذ "فتح الله كولن" منطلقاته الفكرية والدعوية. فنحن والعالم والكون موجودون بوجود الله تعالى، وكانت النبوات قد شكلت التاريخ الروحي لبني الإنسان عبر القرون توكيدًا لهذه الحقيقة. فالشعوب والأمم إنما هي وحدات روحية يكمل بعضها بعضًا ويرفد بعضها بعضًا.

وكل سبر لأغوار الكيان الإنساني سيأخذنا في خاتمة المطاف، إلى مناطق الفطرات والبداهات من وراء جميع الإدراكات العقلية الظاهرية، مشيرة إلى حقيقة الوجود الإلهي المهيمن على كل وجود وموجود. ومن هنا يجيء توكيد الأستاذ، على ضرورة كشف الحجب عن ذاتية الأمة، لكي تتجلى لها هذه الحقيقة بأوضح صورها. فهذا المقال يبني منارات معرفية هادية لمن يرغب بمعرفة الطريق المستقيم.

ومن التوافقات الجميلة والغريبة أن يأتي مقال الأستاذ "محمد عمارة"، وكأنه رديف متمم في المعنى والمضمون لمقال الأستاذ "فتح الله"؛ حيث يعالج قضية وحدة الخلق وإن تعددت صور المخلوقات، وأحدية الخالق المتظاهرة في وحدة الخلق والمخلوقات.. فخطه الفكري يجري موازيًا في هذا المقال، للخط الذي اختطه الأستاذ "فتح الله كولن"، وهو يؤكد -كذلك- المعنى المعرفي الروحاني الذي ينطلق منه الأستاذان الفاضلان.

ولكن هذا الاستيعاب في حاجة دائمة إلى دعاة، على مستويات عالية من اللطف واللين والذوق، تمكنهم من الدخول إلى قلوب المتلقين وأرواحهم دون استئذان. وفي تاريخنا نماذج عالية من هؤلاء الدعاة، فمقال الأستاذ "فؤاد البنا" الموسوم بـ"الفتوحات الناعمة" يتحدث عن هؤلاء الدعاة الذين لم يتمنطقوا بسيف ولم يطعنوا برمح.

ولئن كان الحوار مع الآخر هو مفتاح الدعاة لفتح القلوب والأرواح، غير أن "الحوار مع الذات" ينبغي أن يتقدم بشكل منطقي على الحوار مع الآخر، لذا يلزم الداعية أن يلتفت إلى ذاته ليحاورها قبل أن يشرع بحوار ذوات الآخرين، وعن أهمية هذا الحوار تحدثنا الدكتورة "مريم آيت أحمد" في مقالها "حوار الذات مدخل أساس لحوار الآخر".

وهذا كله إن لم يؤطَّر بإطار من التوازن والاعتدال، وعدم الإفراط أو التفريط في الفكر والعمل، فإنه قد لا يأتي بالخير المؤمل منه. وهذا هو سبب ما نلمسه من خلل في توجهات الحضارة المعاصرة، وتعاملها مع الشعوب بموازين مختلفة تفقدها صفة العدل الذي هو الأساس في أية حضارة تريد الحفاظ على نفسها من السقوط والتدهور، وإلى هذه المعاني يشير مقال الأستاذ "إبراهيم شوقار".

ويسرنا أن نزف إلى قرائنا بشرى صدور "حراء" كل شهرين تباعًا من هذا العدد، بعد أن كانت فصلية الصدور، ومن الله التوفيق والسداد. ■

المحتويات

www.hiramagazine.com
حراء

العدد: ٢٢ – السنة السادسة (يناير – فبراير) ٢٠١١
مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين


٧


٢٠


٣٧


٦٠

فتح الله كَولن

اللّه، الكون، الإنسان.. والنبوة

إن قراءة الوجود والأحداث قراءةً جيدة وتفسيرَها تفسيرًا صائبًا، وكذلك الحفاظ على الموازنة بين الإنسان والكون وحقيقةِ الألوهية، لهي من أهم جوانب الأعماق النبوية ومن أرقى مميزاتها.. فإن الإدراك العميق للوجود كـ"كلٍّ"، والفهمَ التام لتجلي الأشياء -التي بعضها نماذج للبعض الآخر- في صورتها العمومية، ولقوانينِ الوحدة التي هي ذاتُ صفةٍ كونية ومحيطةٌ بالموجودات... كلُّ ذلك إنما تَيسَّرَ للأنبياء وحدهم، وعلى رأسهم حضرة روح سيد الأنام -عليه أكمل التحايا- وهذا أبهر معجزاتهم قاطبة.

وإذ لا زالت البشرية تتهجى في أيامنا هذه حروفَ الحقائق المتعلقة بالإنسان والكائنات وما وراء الطبيعة مع توسعها العلمي وتقدمها التكنولوجي، فإن الأنبياء وقفوا مليا -وبجد- على هذه الحقائق منذ آلاف السنين، وقالوا بالتمام لأممهم ما ينبغي أن يقال في شأن الرجوع بالأشياء لصاحبها؛ فبعضهم أجمل وبعضهم فصَّل، وذلك بجَهازهم الخارق للعادة، ومكانتهم الخاصة عند الحق تعالى، والتبليغات المتوالية من "الماورائيات".

ولم يبلُغ الأنبياء هذه الحقائقَ بطرق البحث العلمية الشائعة في العصر الحالي ولا بالمناهج التجريبية؛ بل بَلَغوا هذا العلم والمعرفة بفضل سعة قلوبهم وعلاقتهم الخاصة بالله تعالى، إلى جانب كمال عقلهم وحسهم وشعورهم وإدراكهم، كمالاً يتعدى حدود التصور الإنساني؛ فرأوا أن الوجود كله في تصرفِ قدرةٍ قاهرةٍ، وأطلوا على وحدة العلم والإرادة المهيمنةِ في كل مكان وكل شيء، وقرؤوا وفسروا الشهود والمعالم والإشاراتِ المناديةَ بالواحد الأحد في سيماء كل الأشياء والأحداث. ثم أعلنوا أنهم دعاة التوحيد في المشاعر والفكر والاعتقاد.

ومن العسير أشد العسر، الادعاءُ بأن العلم قد أتى بشيء يُذْكَرُ حتى الآن في العلاقة بين حقيقة الإنسان والكائنات والألوهية؛ تلك الحقيقة التي أخبر بها الأنبياء منذ مئات القرون. فالعلم لا يزال يحبو في كثير من المواضيع، ويصحح غدًا ما يعدّه صوابًا اليومَ، ويسعى إلى تقويم الغلط المجزوم به بالخطأ المحتمل، بل يراجع نفسه بنفسه باستمرار، ويصون مسلَّماتِه النسبيةَ بفرضيات مختلفة، ولا يستطيع أن يتجاوز حدود تحليل الجزئيات مهما حاول ذلك. فنستطيع أن نقول:

إن العلم لم يضع حتى اليوم حكما ثابتًا في هذه الموضوعات التـي تطرّقنـا إليها بحيث لـم يضطر إلى تبديلـه لاحقا... فلم يوفَّق العلم في التعبير عن الحقيقة المطلقة البتة، وإن ما بلغه لا يزيد على أنه زادٌ وذخيرة للمسافرين وقرضٌ حَسَنٌ للباحثين.

وأنبّـه هنـا إلـى أني لا أقصـد بما قلتـه التهوينَ من شـأن العلـم وثمراتـه، أو الانتقـاصَ مـن أهمية المباحـث العلمية؛ بـل نعتقـد أن العلـم وثمراته منظومةُ قيمٍ هامة جدًّا وتسـتحق التوقيـر والتقدير. فالمقصود هـو التذكير إلى مصدر للعلم لا يُلتفت إليه اليوم، مع أنه أصح المصادر في التعبير عن حقيقة الإنسـان والوجود والخلق، وأكملُها وأشـملها، مع تنزهه عن الخطـأ فـي ما يقوله ويرشـد إليـه... ألا وهو مصـدر "النبوة" التـي احتفظـت بنداوتها أبدًا، باسـتثناء التحريف الحاصل في بعض الكتب السابقة... إن العلوم المعاصرة اليوم قد تكتشف -من منظور كلي وبتقويم شمولي- أمورًا مهمة تتعلق بالنظام والانسـجام والحركة في الوجود والحوادث، ونحن نسـتقبل ذلـك بالتقديـر والتوقيـر؛ لكـنَّ جمعًا مـن المجهَّزيـن بجَهاز خـاص، قد أعلنـوا في أقـدم العصـور وبواكير الزمـان -ولو بشـكل إجمالـي- هذه المعلومـاتِ والتفسـيرات التي توصَّل إليهـا العصرُ باسـتخدامِ أعظم التكنولوجيـات. فإذا كان هناك قسـم مـن الجهـات العلمية لـم يلتفتـوا إليها أو لـم يوقروها التوقيـر اللائـق، فإننـا نرفـع عنـد ذاك أصواتنـا -فـي حـدود أدبنـا- فـوق أصواتهـم، ونجهر بأعلـى صوتنا بما نـراه حقًّا.

فكـم من حقيقةٍ أظهرها العلـم الحديث، قد بلَّغها الأنبياء منذ القدم في صور متنوعة وإنْ في فذْلكات مجملة، بنظر كلّي، واسـتنادًا إلى لدنّياتهم الرحيبـة المنفتحة للوحي وإلى أعماق الفطانـة المتميزة. فأينما وقعت البحوث المنجَزة بالمختبرات الحديثـة والتكنولوجيات المتقدمة مـن الحقائق التي أعلنوها وحيثما وقفت منها، فإن ملايين البشر لا زالوا يقوّمون الأمور بموازينِ تبليغاتهم وتفسـيراتهم، ويسيرون على خطاهم. وفي الطرف الآخر، فإن أحدث الفرضيات المطروحة باسـم العلم والفلسـفة، تتغير كل يوم بنظريات جديدة مختلفة. ويعني هذا أن رجال العلم الحاليين يناقشـون زملاء أمْسـهم ويضعون ما توصلوا إليه على المحك. وبدهي أن نظرياتٍ بدت ثابتةً ومتينة، تترك مواقعها إبان هذه المناقشـة والمساءلة لتحل محلها آراء جديـدة مختلفـة، فتَرحل مُسـلّماتٌ كانت تصـان في حدقات العيون باسـم العلم، متهاويةً واحدة بعد أخرى، لتحل محلها مسـلماتٌ أخـرى تحط واحـدة بعد أخرى! أمـا الحقائق التي بلَّغها الأنبياء، فما فتئت تحتفظ بجدارتها -ما خلا تفسـيراتٍ تعيسة لمتنسبين ضيِّقي الإدراك- باعتبارها أسسًا ثابتة لا زالت تُرجَع إليها أبدًا، وذلك بأنها تستند إلى تبليغاتٍ ورسالات أتت من لدن ذات أجلِّ الأجلاّء وأعظمِ العظماء -سـبحانه- الذي نظـم الوجودَ كله كمَشـهر وكَتَبَه ككتـاب وزيَّنَه كقصر منيف.

لذلـك، لابـد فـي الإدلاء بالمعلومـات في حق الإنسـان والوجـود والخالقِ، من ترك المجال لهؤلاء المجهَّزين بجهاز خـاص (عليهـم أفضـل الصـلاة والتسـليمات)، والمرتبطيـن بروابـط خاصة مع صاحـب القدرة المطلقة، كما أنه ينبغي أن لا يقـوم غيرهـم بإبـداء البيانات حـول ماهيةِ ومعنَـى ما وراء ستار الوجود وما أمامه.

وبدهي أن من أهم وظائف هؤلاء تعيينَ وتثبيتَ المناسبات والتوافـقِ والانسـجام بيـن الكائنـات والأحداث وبيـن حياة الإنسان وسلوكياته، وكذلك، إثبات الذات الأحدية ذي القوة، القيومِ على هذا التوافق المنسجم، وتعيينَ مسؤوليات الإنسان تجاهـه. فإنهم هم الذين اسـتطاعوا أن يجيبـوا -على أصدق وجه وبأسـلوب مقْنع- على الأسـئلة حـول الوجود وبخاصة الإنسان: من أين جاء، وإلى أين راح ويروح، ولِمَ جاء ولِمَ راح؟

ولذلك، لا مناص لنا من اللجوء إلى تبليغات رسل الحق تعالى وحدهم لا غيرهم، لبيان أصح المعلومات وأصوبِها في قضية الغاية والحكمةِ من وجودنا في الأرض، وقواعدِ المسير

إن العصور الآتية هي عصور القرآن، والسلطنة القابلة هي سلطنة "مفخرة الإنسانية" ﷺ. الآذانُ تستمع إلى رسالته، والمشاعل التي تبث النور في الدرب هي مشاعله. نعم، الأمر الفيصل الآن، هو لهذا الموحد الأكبر الذي يُرجع كلَّ شيء إلى التوحيد الخالص.

التي ينبغي أن نلتزم بها في الطريق ومنتهى هـذا الطريق. فإذا اسـتطعنا ذلك فسـنفهم -تماما- القصدَ والغاية من حركة الكائنات في دائرتها الوسيعة الرحيبة، وسندرك جيدًا مـا وراء سـتار الوجـود وما ينطوي عليه، والمجيءَ والرواح المتعاقبَين في الأرض والمذهلَيـن للعقول، فنَصِلُ إلى الاطمئنان والراحة والسلامة في المشاعر والأفكار... اطمئنـانٍ وراحةٍ وسـلامة نابعة مـن العلم والتقويم لظاهر الوجود وباطنه، ولما أمامه ووراءه، ومِـن إدراكِ موقعنا ومكانتنا على الأرض باعتبارنا جزءًا مهمًّا من الكائنات، حتـى نتوافـق مع الانسـجام العام السـائد في الأشـياء والحوادث، ومِـن توجهِنا إلى الذات العلية الذي أَعد الأسـبابَ والوسـائل لسـعادتنا الدنيوية والأخروية، ومن اعتصامِنـا بـه، ومن إيماننا بتحقـق رغبات الأبديـة التي تحِنُّ إليها جوانحنا، وبالتالي توقينا الدائم من الانكسار والخذلان.

إن سـبل اكتسـاب العلـم ووسـائلَه الموهوبـةَ للإنسـان معينـة ومنحصرة. وجليٌّ أن العلوم المكتسـبة بهذه الوسـائل المحـدودةِ، محصورةٌ بطبعها وسـتبقى محصـورة. وأرى أننا سـنعجز بهذا القدر من العلوم والمعارف عن فهم الانسـجام العام وجوهر النظام الموزون السائد في الأرض، بَلْهَ العجز عن إدراك غايـة خلقنا وحكمةِ وجودنا في الدنيا وأصلِ النكتة في مناسباتنا مع الكائنات. والحالُ أن الإنسان يحمل على أكتافه مسؤوليةَ تنظيمِ حياته وفاقًا لسنن "نظام الكون" المهيمنةِ على الوجود كله، وطبقا لغاياتٍ عُلْويةٍ بموجب موقعه بين الخلق، كما هو مُلزَم بتنظيم حياته وفقًا لما يقتضيه موقعه ومكانته في الوجود. فما لم يُسـلِّم هذا الإنسـانُ زمامَ أمره إلى دليلٍ هادٍ، عارفٍ بيوم هذا السـفر المجهول وغدِه، وبمقدمته ومؤخرته، فإنه سـيقع لا محالة في أخطاء كثيرة وضنك شديد في مسيرة حياتـه في طريق الصعـود والهبوط والمنعطفـات والمتاهات ذاتِ مجاهيـلَ وأهـوال كثيـرة، بل قـد لا يبلغ -البتـة- الغايةَ المقصودة من خلقه.

إن رسل الحق الهداةَ، والمحظوظيـن المقتدِيـن بهـم، هـم الذيـن قـرؤوا الوجـود والحوادث قـراءة صحيحـة دومًـا، وسـبروا أغـوار الجوهـر مخترقين الشـكلَ والصورةَ، ونَفَـذوا إلى لب الأشياء وشاهَدوا المعنـى في المادة، فاطَّلعوا على بواطنِ كلِّ شيء مع ظواهرها.

فنحـن الذين نعجز عـن التنبؤ الجازم بمـا يلاقينا من الفجـاءات المحتملة إبان سـيرنا فـي طريـق الحيـاة، سـتخور قوانا وتنقطـع بنـا السـبل، ولا ننجـو مـن التيه والضـلال، وسـنغلط فـي قـراءة كتـاب الوجود، ولا نطَّلع على معرض الكائنات بنظـر يرجع بالبركة، ولن نفهم معنَى قَصْرِ الدنيا المنيف وفحواه وأسـرارَ بواطنه، ما لم نطع المرشدين والرسل الذين أرسلهم خالقنا الرحمـن الرحيم الذي جاء بنا من "عوالـم أخـرى" ليحـط بنـا هنا فـي هذا العالم، ثم يسوقَنا من هنا إلى ديار أخرى. بل زد عليه أننا سنُنيط الأشياء والأحداث -وكل منهـا مـن خـوارق القـدرة- وتظاهـراتِ الحـوادث وتحولاتِهـا المختلفة بقوانين الطبيعة، فتتراءى لنا عندئذٍ تلك الخوارقُ البديعة أمورًا عادية ويَدْلَهِمُّ الظلام في آفاقنا.

إن رسـل الحق الهداةَ، والمحظوظيـن المقتدِين بهم، هم الذين قرؤوا الوجود والحوادث قراءة صحيحة دومًا، وسبروا أغـوار الجوهـر مخترقين الشـكلَ والصورةَ، ونفَـذوا إلى لب الأشـياء وشاهَدوا المعنى في المادة، فاطَّلعوا على بواطنِ كلِّ شيء مع ظواهرها. وبتعبير آخر: إنهم -في تفسيرهم للوجود- ركزوا على المحتوى باستمرار، واستلهموا إشاراتٍ من أشعة التجليات المختلفةِ الموجاتِ والتي تُبدي المؤثِّرَ في كل أثر. ولأنهم مضوا في سبيل سياحتهم وتفكرِهم الروحي مشدودين إلـى الخالـق الجليـل، فقد طـوروا أجزاء العلـم التي حصلوا عليهـا، فحوَّلوها إلى المعرفة الإلهية، وخاضوا في مناسـباتٍ وروابـطَ قلبيـة قويـة مـع المعـروف -سـبحانه- وفاقًا لأفق العرفان الذي بَلَغوه، فبلغوا "أُنسـا" وافيا بكل شـيء في أجواءٍ كالجِنان، فتوجهوا إليه تعالى وهم في شـبوبِ مشـاعرَ كأنهم تحت شلَّالِ محبةٍ عميقة وذوقٍ روحانيٍّ، في كل آن ولحظة.

فالسـعداء هؤلاء، لهـم نظر خاص إلى الوجـود وما وراء الوجود؛ فهم يطَّلعون على كل شيء بأنوار البصيرة، ويقوِّمون الأشياء والأحداث في الدائرة التي وضَعَتْها فيها قدرة الخالق



تعالـى، ويتناولون كل شـيء بحقيقته في نفس الأمر (بحقيقة جوهره)، وإذ يفسرون الوجـود بفهم شـموليّ ينتظم كلَّه وجزءَه، يعتنـون بتـوازنِ كل الأشـياء فيمـا بينهـا وتناسُـبها، وبروابطهـا بالخالق تعالى، فلا يقعـون أبـدًا في تناقض داخلـي. ولذلك، هـؤلاء وحدهـم أفلحـوا مـدى الدهر في النظـر الصائـب والفكر الصائـب والتعبير الصائب، بشأن حقيقة الإنسان والكائنات والألوهية؛ فهم وحدهم استطاعوا أن يبينوا التوحيد بجميـع ضرورياته ولوازمه، وهم وحدهـم اسـتطاعوا أن يبينـوا الموازنات السـليمة بين الأسـماء الإلهيـة والصفات السـبحانية والشـؤونات الذاتية مع الذات الإلهية... وكذا هم وحدهـم عبـروا تعبيرًا صائبًا عن خصوصيـاتِ دائرةِ الألوهية ودائرة الربوبية باعتبارها تجلياتٍ مختلفةً لنبع واحد.

إن الإنسان القادم من عالم الأرواح إلى الدنيا، والـذي سيرحل منها إلى البـرزخ، ومن البـرزخ إلى الأبدية، لهـو بحاجة إلى معرفةٍ فـوق المعرفة الإنسانية بل فـوق الزمان والمكان، حتى يـديمَ السير بأمان وثقة من غير ضيـاع وتلكؤ وشَدَهٍ وقلق، في هذا الطريق الطويل ذي الخصال الخاصة بها في كل مرحلة.

ولولا أنْ تجلت الإرادة الإلهية بالإحسان في إرسال الرسل، لعجـزتْ أخصبُ الأدمغة -على توالي العصور والدهور ومع أعظـم الهمة والجهد- عـن تحصيل مثل هـذه الحقائق قطعًا وبتاتـا، بل عجزُهـا ظاهر للعيان بواقع الحـال! وإني لا أجزم منـذ الآن، بمـا قد يطرأ من التغيرات على التفسـيرات الحالية للجهـات العلميـة جـراء التوسع في وجهـات النظـر، نتيجةً للتطـورات العلميـة في المسـتقبل، لكن الظاهـر عيانًا هو أن دوام الحـال -كما هو الآن- محال! ويا ليت أن البشـرية التي عاشـت في حيـرة وغفلة هائلةٍ حتى اليـوم، التفتت هنيهة إلى التبليغات الإلهية وتفسـيراتِ الأنبياء في شؤونٍ تتجاوزُ إدراكَ البشـر مثـلِ حقيقة الوجود وما وراء الوجـود، وتخلصت مما تتخبـط فيه من الجو الخانق الذي تثيره المعلومات المضللة، وحلَّقـت في سـماء الإلهامـات النبوية... فلعل الإنسـان عند ذاك كان سـينجح فـي النظر نظرًا أصفى إلـى حقيقة الوجود، ويـدرِكُ موقعـه ومسـؤولياتِه في الكون، ويَفهم ما وراء سـتار الأشـياء والحـوادث، ويعـي مناسـباتِ الأشـياء فيمـا بينهـا، والتناسـبَ السـائد والانسـجامَ العام في الأوامـر التكوينية...

فلعلـه بذاك كان سـيعيش وتيـرة الدخول إلى المناسبات مع خالقه تعالى من جهة، ويمتنـع عـن مخالفـة النظـام السـائد في الكـون برمتـه فلا يتصادم مـع الوجود من جهة أخرى. لكن بني الإنسـان -وبخاصة الأنفـس العاصيـة فـي عصرنـا هـذا- لم يحققـوا هذا التوجه السـائد، بـل عَقُّوا الله وعَصَـوْه، وبَقُـوا متناقضيـن مـع الأشـياء والحـوادث فلم ينجوا من العـذاب البتة، ومـا كان لهم أن ينجوا. فكيف، ووسـائط العلم الممنوحةُ لهم محدودة، وإمكاناتُهم في حل المشكلات التي تواجههم يسيرة؟ فليـس لهم أن يكتشـفوا بمـا يملكونه من الوسـائط والإمكانات التي هي أسـباب العلم إلا النزرَ اليسير من الوجود، مع التعرض للغلط والتصحيح المستمرَّين، وهو ما حصل.

وكان ينبغي للإنسـان أن ينظر إلى تمام الكائنات المحيطة بـه، والعالـمِ الـذي يعيش فيـه، والنظـامِ الموزون، وانسـجامِ الأشـياء عمومًا فيما بينها... ينظر إليها حسـب سعة الكائنات وتداخلِ الأحداث، ثم حسـب رحابِ رغباته وطلباته وآماله، وليـس بقدر ضِيـق أُفقه وانحصارِ علمه وتبدُّل أفكاره... حتى لا يخيـب رجاؤه في الحياة التي يعيشـها، وفـي الطريق الذي يسـير عليها، وفي آماله التي يترقبها بطبيعته في نهاية الدرب. لكنـه خاب وخسـر مرات ومـرات، ولا زال..! ولن ينجو من الخيبة والخسران ما دام غيرَ مبالٍ بطريق سيره وبمصيره.

فإن الإنسـان القـادم من عالم الأرواح إلـى الدنيا، والذي سيرحل منها إلى البرزخ، ومن البرزخ إلى الأبدية، لهو بحاجة إلـى معرفةٍ فوق المعرفة الإنسـانية، بل فوق الزمان والمكان، حتـى يديـمَ السـير بأمان وثقـة من غير ضيـاع وتلكؤ وشَـدَهٍ وقلـق، فـي هذا الطريق الطويل ذي الخصـال الخاصة بها في كل مرحلة. والحال أنه في الغالب مسكين عاجز أشدَّ العجزِ، وجاهـلٌ بما قـد يلاقيه بعد خطوتين، حتى في هذه الدنيا التي يَزعـم أنـه يعرفها معرفة مكينة! إذن لا يمكنه البتة أن يبلغ إلى

ما يتمنى في هذا الطريق الذي يتطلب برنامجًا وخطة وطيدة. فالمسير طويل طويل، والمحطات كثيرة كثيرة، والطريق وعرة، والجبال شاهقة والمهاوي سحيقة. فهل من حاجة إلى بيانٍ للاستدلال على ضرورةِ وجودِ هداةٍ عارفين بآداب الطريق وأركانِه في هذا المسير الشاق إلى المنزل الحق؟

وقد حمل الأنبياءُ كلهم رسالةَ الهداية هذه على مر الزمان، فنشروا الأنوار في طريقِ سيرِ الإنسانية، وكشفوا الغطاء عن أنظار السائرين في الدرب، وأضاؤوا آفاق أَتْباعهم في حقيقةِ "الله والكائنات والأشياء"، فأنقذوهم من حزن الوحدة وقلق جهل المصير.

لقد خَطَّتْ كلُّ حركةٍ نبويةٍ طريقًا مشتركًا في القضايا الأساسية منذ الإنسان الأول الذي هو النبي الأول: فنَبَّهت -بلا فتور- إلى الأساسيات، كالتوحيد والبعث والنشور والنبوة والعبودية والعدل... وأدامت الإرشاد والتنبيه وأنواع التحذير بشأن المسائل التبعية حسب الزمان والشروط العامة ودرجةِ النضج الإنساني، ولفَتَتْ -دائما- أنظارَ أَتْباعها إلى الأهداف السامية أبدًا. فخطُّ الاستقامة في الحياة الدينية واحد من حيث الأساسيات. أما في التفرعات، فثم شيء من الاختلاف الذي هو في ذاته ضروري ولازم.

والقرآن هو النداء الأخير والرسالة الأخيرة للإنسانية التي بلغت أَشُدَّها. هذه الرسالة الإلهية الأخيرة أكدت على الأساسيات المحكَمة الثابتة بعينها في الأديان كلها، ووَعدت باستيعابِ متطلباتِ الأزمنة والأمكنة كافة فختَمت كتابَ الدين. فعلى الإنسانية من بعدُ أن تَستمر في المسيرة على نورِ هذه الرسالة الأخيرة، وأن تَستخدم طاقةَ التطوير والتغييرِ مربوطةً بنظامها، وأن تحقّق كدح الوصول إلى الحقيقة المطلقة تحت وصايتها.

نعم، إن العصور الآتية هي عصور القرآن، والسلطنة القابلة هي سلطنة "مفخرة الإنسانية" ﷺ. الآذانُ تستمع إلى رسالته، والمشاعل التي تبث النور في الدرب هي مشاعله. نعم، الأمر الفيصل الآن، هو لهذا الموحد الأكبر الذي يُرجع كلَّ شيء إلى التوحيد الخالص. ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.



أحلام الربيع

الليل عاصف، والريح قاصف،
وكُلُّ شيء كأوراق الخريف يتطاير...
فابتهلنا، وعلى الله توكّلنا، وانطلقنا،
نبشر بالربيع، ونغنّي للعَالَم الآتي، والنور القادم...
عاليًا عاليًا نعلو، وآفاق الشهادة نريد،
وعنها إذا جَدَّ الجدُّ لا نَحيد..!
* * *

أ.د. محمد عمارة*

خلق واحد

وتعددية في المخلوقات

أحِبَّ اللهَ يحببك الناس.. ما يحبُّه فأحبَّه، وما يكرهُه فاكرهْه؛ إذن ترتفع منزلتك عند الله وعند الناس، وبهذا وحده تظلُّ عاليَ الشأن رفيع المنزلة..!

* * *

يتحدث القرآن الكريم عن الكون -بعوالمه المختلفة- باعتباره "خلق الله": ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾(لقمان:١٠-١١)، فهذا الكون، خلقٌ واحدٌ لخالق واحدٍ.

لكن عوالم هذ الخلق الواحد لا يعلم عددها إلا الله ﷻ، بل إن التعددية والتمايز والاختلاف هي عوالم وآيات إلهية تتنوع إليها وتتمايز فيها كل وحدة من وحدات هذه المخلوقات.

فكل صنف من أصناف الأحياء المخلوقة يتنوع ويتعدد إلى أمم وجماعات، فتقوم التعددية في إطار هذا النوع من الأحياء، كما قامت التعددية في إطار الخلق الحي الذي خلقه الله ﷻ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(الأنعام:٣٨).

وهـذه الأرض التي خلقها الله ﷻ وسوّاها، فيها ألوان وألوان من التعددية والتنوع والتمايز والاختلاف، فهي سبع أراضين: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾(الطلاق:١٢).

أرض واحدة وعوالم عديدة

وفي هـذه الأرض تنوع وتعدد لا يعلم عدده إلا الله؛ تنوع في الجبال الرواسي والأوتاد التي تحفظها أن تميد، وتنوع في الأنهار -المالحة والعذبة- تنوع بواسطة البرازخ التي تخالف وتمايز مياه كل بحر من البحار ونهر من الأنهار، وتنوع في طبائع قطع الأرض المتجاورات، وتنوع في الثمرات التي تثمرها ذات الأرض الواحدة التي خلقها الله ﷻ... عالم، بل عوالم من التعددية والتنوع والاختلاف، التي لم يحص العلم الإنساني أعدادها في إطار هـذه الأرض: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الرعد:٣)، ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(الرعد:٤)، ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾(النحل:١٣). ففي هذه الأرض الواحدة عوالم عديدة من التعدد العجيب.. "فيها قطع يجاور بعضها بعضًا، وهي مختلف التربة مع ذلك، بعضها قاحل وبعضها خصب، وإن اتحدت التربة ففيها حدائق مملوءة بكروم العنب، وفيها زرع يحصد ونخيل مثمر، وهي مجتمعة ومتفرقة، ومع أنها تسقى بماء واحد، يختلف طعمها... وعلى سطح هذه الأرض خلق الله ﷻ كثيرًا من أنواع الحيوان والنبات والجماد، وجعل في جوفها كثيرًا من المعادن المختلفة الألوان والأشكال والخواص. وإن في هذه العجائب لدلائل واضحة على قدرة الله ﷻ لمن له عقل يفكر به...".[1]

ومثْل الأرض -في التعددية والتنوع بإطار الوحدة- جاء خلق الله ﷻ للسماء، فهي سبع سموات. وفيها ما لا يعلم عدده إلا الله من عوالم الكواكب والنجوم المجرات: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٩)، ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾(الصافات:٦)، ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(فصلت:١٢).

وبالشمس والقمر تعدد المنازل والمدارات، والمشارق والمغارب، والليل والنهار، بالنسبة لكل موقع على سطح الأرض وفي كل لحظة من اللحظات: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ۞ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(يس:٣٧-٤٠)، ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۞ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۞ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾(الصافات:٤-٦)، وعوالم من التعددية والتنوع والاختلاف في إطار السماء التي خلقها الله ﷻ.

ماء واحد وأصناف متعددة

وهذا الماء الذي أنزله الله من السماء، منه العذب السائغ شرابه، ومنه الملح الأجاج، ومنه البحار والأنهار وما سلكه الله ﷻ في الأرض ليتفجر عيونًا وينابيع، مع التنوع الذي يدركه علم الإنسان في الطعوم والخصائص ودرجات الحرارة والمكونات: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(الزمر:٢١)، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(فاطر:١٢)، ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾(الفرقان:٥٣).

ومن هذا الماء الواحد تخرج عوالم وألوان وأصناف متعددة ومتنوعة ومتمايزة ومختلفة من الثمرات: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾(فاطر:٢٧)، ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾(فاطر:٢٨)، ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾(طه:٥٣)، ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾(طه:٥٤).. "فالله ﷻ أنزل من السماء ماء فأخرج به ثمرات مختلفًا ألوانها،

منها الأحمر والأصفر والحلو والمر والطيب والخبيث، ومن الجبال جبال ذوو طرائق وخطوط بيض وحمر، مختلف بالشدة والضعف، ومن الناس والدواب والإبل والبقر والغنم مختلف ألوانه كذلك في الشكل والحجم واللون.. ثمرات مختلفات الألوان، يروي شجرها ماء واحد، وجبال من ألوان مختلفة يرجع أصلها إلى مادة واحدة. وهكذا سنة الله واحدة، لأن الأصل واحد والفروع مختلفة متباينة".[٢]

وهذه الرياح التي خلقها الله ﷻ هي الأخرى عوالم من التنوع والتميز والتعددية والاختلاف منها ﴿رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾(آل عمران:١١٧)؛ أي برد شديد أو سموم حارة، ومنها ﴿رِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾(يونس:٢٢)، وأخرى ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾(يونس:٢٢)؛ أي شديدة الهبوب والتدمير، وقد تأتي ﴿قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾(الإسراء:٦٩)؛ أي عاصفًا شديدًا مهلكًا يقصف الأشجار، وكذلك ﴿الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً﴾(ص:٣٦)؛ أي لينة منقادة، ومنها ﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾(الذاريات:٤١)؛ المهلكة لمن ولما أصابته، وفيها ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾(الحاقة:٦)؛ باردة لها صوت شديدة مزعج.. ومن أصنافها ﴿الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾(الحجر:٢٢)؛ للنبتات حاملة لقاح التذكير إلى الإناث، ومنها ﴿الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾(الروم:٣٧)، بالمطر؛ تلك التي تثير السحاب الحامل للماء ﴿اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(الروم:٤٨). عالم من التعددية والتنوع، ذلك الخلق الواحد الذي أبدعه بديع السموات والأرض ﷻ.

السببية والأسباب في الخلق الإلهي

وإذا كانت "كلمة الله" هي "خَلْقه"، فإن التعددية والتنوع في هذا الخلق، هي عوالم لا يدري إحصاءها ولا مداها إلا الله ﷻ، بل لو أن أشجار الكون تحولت أغصانها إلى أقلام، وبحار الوجود تحولت إلى مداد لهذه الأقلام، واستدام الإمداد لهذه البحار بالمداد، لما استطاعت هذه الأقلام أن تحصي ما في خلق الله من تعدد وتنوع وتكاثر واختلاف: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(لقمان:٢٧)، ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾(الكهف:١٠٩).

هذا الخلق الواحد الذي أبدعه الخالق الواحد الأحد، قد أودعه خالقه وبث فيه العديد من الأسباب الفاعلة التي تفعل فعل الضرورات في المسبَّبات الناتجة عن هذه الأسباب، وذلك دون أن يكون هناك -في الرؤية الإسلامية- أيّ تناقض بين كون الخالق ﷻ وبين وجود وعمل جميع الأسباب في جميع المسبَّبات.

وهذا الخلق الواحد الذي أبدعه الخالق الواحد الأحد، قد أودعه خالقه وبث فيه العديد من الأسباب الفاعلة التي تفعل فعل الضرورات في المسبَّبات الناتجة عن هذه الأسباب، وذلك دون أن يكون هناك -في الرؤية الإسلامية- أيّ تناقض بين كون الخالق ﷻ -وهو السبب الأول لكل الأسباب والمسببات- وبين وجود وعمل جميع الأسباب في جميع المسبَّبات.

فنحن -في قضية السببية والأسباب المودعة والمبثوثة في الخلق الإلهي- لا نجد أنفسنا إزاء أي تعارض أو تناقض بين الإيمان بواحدية السبب الأول في الخلق، وبين تعدد الأسباب الفاعلة في المسبَّبات، فهي فلسفة لم يختلف فيها مسلم. حتى حجة الإسلام الغزالي الذي توهم ويتوهم البعض إنكاره لعمل الأسباب في المسبَّبات، فإننا نجده يقول: "إن الأسباب والمسببات يتأدى بعضها إلى بعض في الدنيا بترتيب مسبب الأسباب. والله تعالى غير عاجز عن الإشباع من غير أكل، والإرواء من غير شرب، والإنشاء من غير مصاحبة وقاع، والإنماء من غير رضاع، ولكنه رتب الأسباب والمسببات، ولذلك أمر وحكمة لا يعلمها إلا الله تعالى والراسخون في العلم".[٣]

تعدد الأسباب سنة إلهية

فمسبب الأسباب قد شاءت حكمته أن تتعدد الأسباب الفاعلة في خلقه، وأن تترتب أفعاله على هذه الأسباب والقوى التي أودعها وبثها في هذا الخلق، جاعلًا ذلك سنة من السنن وقانونًا من القوانين الكونية التي لا تبديل لها ولا تحويل، حتى ليقول ولي الله الدهلوي (١١١٠-١١٧٦هـ) في شرح الآية الكريمة ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾(الأحزاب:٦٢): "اعلم أن بعض أفعال الله يترتب على القوى المودعة في العالم بوجه من وجوه الترتب، شهد بذلك النقل والعقل؛ قال رسول الله ﷺ: "إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض،

منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب". وسأله عبد الله بن سلام: ما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه؟ فقال: "إذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت".[٤]

فالخلق واحد، أودع الخالق فيه العديد من الأسباب والقوى الفاعلة في المسببات. فتعددية الأسباب في إطار وحدة الخلق وواحدية خالق الأسباب والسبب الأول فيها معلَم من معالم التصور الإسلامي للكون الذي يعيش فيه الإنسان، له آثاره على قضية التعددية في ثقافة هذا الإنسان. وإذا كان "العالم" واحدًا، فإن هناك تعددية في زاوية الرؤية لهذا العالم باعتبار موقعه من "القِدم" ومن "الحدوث" تفضي إلى تعددية في الحكم على هذا "العالم" الواحد، باعتبار حظه من "القدم" أو "الحدوث"، بل إن هذه التعددية في زاوية الرؤية قد حلت -في الفلسفة الإسلامية- إشكاليات لم تجد لها حلولا -تبعد الثنائيات المتناقضة- في الفلسفات غير الإسلامية.

قِدم العالم وحدوثه

فالذين قالوا بقِدم العالم نظروا إليه من زاوية شبهه بالقديم وباعتبار الأجرام العلوية التي لا يعتريها الكون والفساد، بينما الذين قالوا بحدوثه قد نظروا إليه من زاوية شبهه بالمحدثات. فالتعددية إنما هي في زاوية الرؤية، والحقيقة أن هذا العالم ليس خالصًا في القِدم ولا خالصًا في الحدوث. وبعبارة أبي سليمان السجستاني (٣٩١هـ) فلقد "عرض الاختلاف بين الناظرين في العالم، أقديم هو أم محدث لأمر لطيف؛ وذلك أن الناظر إلى المركز وجد الشيء الفاسد، فحكم أن الحدوث والقدم قد تعاقبا عليه قدم بالزمان، وحدوث أيضًا بالزمان، فرأى أن الحكم بأنه محدَث واجب. والناظر إلى الأجرام العلوية وجد ما لا يكون ولا يفسد ولا يعتريه دثور، فحكم بأنه قديم. فكان النظران صحيحين من الجهتين المختلفتين".[٥]

ولعل عبارة ابن رشد هي الأدق والأبلغ، تلك التي يقول فيها: "وأما مسألة قدم العالَم أو حدوثه، فإن الاختلاف فيها عندي -بين المتكلمين من الأشعرية وبين الحكماء المتقدمين- يكاد أن يكون راجعًا للاختلاف في التسمية. وذلك أنهم اتفقوا على أن ها هنا ثلاثة أصناف من الموجودات: طرفان، وواسطة بين الطرفين، فاتفقوا في تسمية الطرفين واختلفوا في الواسطة.

فأما الطرف الأول فهو موجود وُجد من شيء غيره وعن شيء؛ أعني عن سبب فاعل، ومن مادة، والزمان متقدم عليه؛ أعني على وجوده. وهذه هي حال الأجسام التي يدرك تكونها بالحس، وهذا الصنف من الموجودات اتفق الجميع على تسميتها محدَثة. وأما الطرف المقابل لهذا فهو موجود لم يكن من شيء ولا عن شيء، ولا تقدمه زمان، وهذا أيضًا اتفق الجميع على تسميته قديمًا وهو الله تبارك وتعالى. وأما الصنف من الموجودات الذي بين هذين الطرفين، فهو موجود لم يكن من شيء ولا تقدّمه زمان، ولكنه موجود عن شيء؛ أعني عن فاعل. وهذا هو العالَم بأسره، وبيّنٌ أنه قد أخذ شبهًا من الوجود الكائن الحقيقي ومن الوجود القديم. فمَن غلَّب عليه ما فيه من شبه القديم على ما فيه من شبه المحدثات، سماه قديمًا، ومَن غلَّب عليه ما فيه من شبه المُحدَث سماه محدثًا، وهو في الحقيقة ليس محدثًا حقيقيًا ولا قديمًا حقيقيًا، فإن المحدث الحقيقي فاسد ضرورة، والقديم الحقيقي ليس له علة".[٦]

فالعالم واحد، والتعددية التي صارت في قضية قدمه أو حدوثه، إنما جاءت من تعدد زوايا الرؤية لهذا العالم. وهي تعددية تفسح لهذا المنهاج مكانًا في تصورات المسلم للكون، ومن ثم في ثقافته التي ترى التعددية والتنوع والاختلاف دائمًا وأبدًا في إطار الجامع الموحِّد لِسِمات وقسمات هذا الاختلاف. ■

إذا كانت "كلمة الله" هي "خَلْقه"، فإن التعددية في هذا الخلق، هي عوالم لا يدري إحصاءها ولا مداها إلا الله ﷻ، بل لو أن أشجار الكون تحولت أغصانها إلى أقلام، وبحار الوجود تحولت إلى مداد لهذه الأقلام، واستدام الإمداد لهذه البحار بالمداد، لما استطاعت هذه الأقلام أن تحصي ما في خلق الله من تعدد وتنوع وتكاثر واختلاف!

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

الهوامش

(١) المنتخب في تفسير القرآن، ص:٣٥٣-٣٨٦. وضع "المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية"، طبعة القاهرة، ١٩٨٦م.
(٢) في ظلال القرآن، ج:٥، ص:٢٩٤٢.
(٣) المضنون به على غير أهله، ص:٣١٥-٣١٦، ضمن مجموعة "القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي".
(٤) حجة الله البالغة، ج:١، ص:١٧.
(٥) المقابسات، ص:٣٠١-٣٠٢.
(٦) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال، ص:٤٠-٤٢.

د. فؤاد البنا*

أنْ تفرض نفسك على الآخرين فرضًا عمل استبدادي.. فلربما تكسب إذعانهم ولكنك لن تكسب محبتهم واحترامهم أبدًا..!

* * *

الفتوحات الناعمة

وأثرها في فتح القلوب

احتفلت مدينة "تريم" عام ٢٠١٠م بتتويجها عاصمة للثقافة الإسلامية، وهي تقع في وادي حضرموت اليمني؛ هذا الإقليم المشهور بسكانه المسالمين الذين هم أبعد اليمنيين عن العنف وحمل السلاح، ورغم ذلك لعبوا دورًا كبيرًا في الفتوحات الإسلامية لمنطقة جنوب شرق آسيا، إضافة إلى تشاركهم مع العمانيين في الفتوحات الإسلامية لمنطقة شرق إفريقيا. شعوب كثيرة وعظيمة اعتنقت الإسلام دون أن يصلها جندي واحد، حيث فُتحت عن طريق الكتائب الناعمة التي حملت لواء الدعوة السلمية،



إن عصرنـا هو العصر الذهبـي للجهاد الأبيض، إذا أحسن المسلمون استثماره، فإن "الكتب" يمكن أن تسد مسد "الكتائب"، و"الصحف" يمكن أن تقوم مقام "الصفائـح"، وتأثير "أسهم" الشركات أقوى مـن "سهـام" الجيوش، وفاعلية "فـرق" الدعوة المدنية أفضل من "فرق" الدولة المسلحة.



الدعوة المتسـلحة بحسـن فهم الإسلام، وحسـن تنزيله على الواقع، وجودة تطبيقه في الحياة العملية.

وفـي هـذا العصر الذي أسـاء فيه مسـلمون للإسـلام، بسـبب سوء الفهم وسوء التجسيد وسوء التقديم، وأساء فيه خصوم المسـلمين إلى الإسلام بسوء نية أو بحسن نية، ومن ذلـك مـا يرتبط بموضوعنـا، حتى زعم الطرفـان -رغم الهوَّة الكبيرة بينهما- أن الإسـلام انتشـر بقوة السيف، حيث اختُزل الجهـاد الإسـلامي فـي القتال، فهـل الحقيقة كذلـك؟ هذا ما سـنحاول تسـليط الضوء عليه، مركّزين على دور الفتوحـات الناعمة في نشر الإسلام.

هل الجهاد هو القتال؟

في عصـور التخلف تفقد المصطلحات معانيها، ويتم الخلط بيـن كثير من الكلمـات المختلفة، تحت عناويـن عديدة منها التـرادف، بمعنـى أن هنـاك اتجاهات في أوسـاط المتدينين -من أصحاب التدين المنقوص- نظرت إلى الجهاد كمرادف للقتـال. وحتى نـدرك الفرق بين الكلمتين، فسـنحاول معرفة معانـي مصطلـح الجهاد فـي لغة العرب التي نـزل بها القرآن الكريـم، أمـا القتال فهـو معروف. مـن يقرأ قواميـس العربية سـيجد أن الجهاد ومشتقاته كالمجاهدة والاجتهاد والتجاهد، لا تخـرج عـن معنـى بـذل الوسـع واسـتفراغ الطاقـة لدرجة الشعور بالإجهاد.

والاجتهاد: أخذ النفس ببذل الطاقة وتحمل المشقة، يُقال جهدتُ رأيي وأجهدتـه: أتعبته بالفكر، والجهاد والمجاهدة: اسـتفراغ الوسـع في مدافعة العدو. والجهاد ثلاثـة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشـيطان، ومجاهدة النفس، وتدخـل ثلاثتهـا فـي قولـه تعالـى: ﴿وَجَاهِـدُوا فِـي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾(الحج:٧٨)، ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِـكُمْ فِي سَـبِيلِ اللهِ﴾(التوبـة:٤١)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُـوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾(الأنفال:٧٢).

ويمكن اعتبار الجهاد في التعبير القرآني محاولة للوصول بالفعل إلى ذروة فاعليته البشرية، ببذل ما يستطاع من الأسباب، واسـتنفاد ما يمكن من الوسائل والأسـاليب من أجل تحقيق الغاية المقصودة. وبعبارة أدق يمكن القول، إن استفراغ الوسع وبـذل أقصى درجات الطاقة يمكن أن نقـول عنها "اجتهادًا" إذا كان فـي الجوانب العلمية، و"جهادًا" إذا كان في الجوانب العمليـة. ويدخل القتال ضمن مفـردات الجهاد، لأن المقاتل يسـتفرغ وسـعه في محاولة تحقيق الهدف المقصود من وراء هذا القتال، بمعنى أن كل مقاتل في سـبيل الله مجاهد، وليس كل مجاهـد مقاتـل. وبمزيـد مـن اسـتعراض آيـات الجهاد والقتـال، سـتتضح الفـروق بينهمـا، وهـذه بعـض الفـروق:

١- شُـرع القتـال في المدينـة المنورة بنـزول قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِيـنَ يُقَاتَلُـونَ بِأَنَّهُـمْ ظُلِمُـوا وَإِنَّ اللهَ عَلَـى نَصْرِهِـمْ لَقَدِيرٌ﴾(الحج:٣٩). أمـا الجهاد فقد شُـرع فـي مكة رغم حرمة القتال في المرحلة المكية كما هو معلوم، بل حرم الرسول ﷺ على أصحابه ﷺ حتى مجرد الدفاع عن أنفسهم أمام اضطهاد قريـش وتعذيبها لهـم. وقـد وردت آيات عدة تحدثت عن الجهاد في عدد من السـور المكية، أهمها العنكبوت، النحل، الفرقان، لقمان. وهكذا فإن الجهاد مكي والقتال مدني.

٢- الجهـاد منظومة كاملة لعمارة الحياة وتعبيد النـاس لله ﷻ عن طريق البيان والإقناع، وبالتالي لا يتوقف الجهاد في أي ظـرف. أما القتال فهو حالة اسـتثنائية، تأخذ حيزًا زمانيًا،

ومساحة مكانية محدودتين بحسب الضرورة، بمعنى أنه آخر الدواء، فهو شبيه بالكَيّ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا﴾(البقرة:١٩٠).

٣- لا يجوز التوقف أبدًا عن معانقة أسباب الجهاد لعبادة الله ﷻ في محراب الحياة، باستعمار الأرض وخدمة حقوق الآخرين. أما القتال فهو ضرورة آنية، ومن الضرورة بمكان أن يفقه المسلم أحكامه حتى لا يعتدي على أحد، لكن الأصل في علاقته مع الآخرين هو السلام، قال تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(الممتحنة:٨). ولهذا فإن المؤمن مأمور بالاستزادة في مضمار الجهاد، أما القتال فإن من نعم الله ﷻ على المؤمنين كفايتهم له، قال تعالى: ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾(الأحزاب:٢٥)، ولهذا نهى النبي ﷺ عن تمني لقاء العدو، وعندما فرض الله ﷻ القتال وضّح كراهة الطبيعة البشرية له فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾(البقرة:٢١٦).

٤- أجاز الإسلام جهاد المنافقين ولم يجز قتلهم إلا عند الخروج على النظام العام للمجتمع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(التوبة:٧٣). ومن المعلوم أن الجهاد هنا ليس قتالاً، بدلالة عدم قتل الرسول ﷺ للمنافقين، ورفضه لمحاولة بعض الصحابة كعمر بن الخطاب ﷺ لقتل بعض زعمائهم ولا سيما عبد الله بن أبي، مما يؤكد أن جهاد المنافقين هو جهاد أبيض، تستخدم فيه كل الأسلحة المتوفرة في كنانة "الحكمة"، وحتى في كنانة ما أصبح يسمى في الفكر السياسي المعاصر بـ"الحرب الباردة"، بحيث لا يؤدي أي سلاح منها إلى إراقة الدماء، لأن الغاية من جهادهم إعادتهم إلى رشدهم، أو تحجيمهم وهتكهم وكشف مؤامراتهم وفضح أسرارهم، كما فعلت سورة التوبة التي سميت بالفاضحة، حتى لا تنطلي أراجيفهم على المسلمين.

الجهاد أوسع دائرة من القتال

إن تدبر آيات القرآن الكريم، واستقراء سيرة المصطفى ﷺ -وهي التجسيد العملي للقرآن- يؤكدان أن ميدان الجهاد أوسع بكثير من القتال. فإن تجويد التربية والتعليم، والترقي بالأفكار والأفعال، والوصول إلى الفاعلية في صناعة الحياة والقضاء على مظاهر ومسببات الوهن والغثائية، وصناعة الأرقام الصحيحة في ميادين التميز والتفرد وخدمة حقوق الإنسان، من خلال شُعب الإيمان وميادين الحياة، كلها مساحات واسعة في ميدان الجهاد.

أما القتال فدائرته ضيقة لا تستوعب إلا حالات خاصة ومحددة في المواجهة المسلحة، كلها استثنائية. فمن يستحقون القتال هم استثناء ممن يستحقون السلام، وظروف القتال زمانًا ومكانًا تظل محدودة. وحتى في المساحات الجائز فيها القتال، فإن المقاتل المسلم لا يتحرك في هذه الدائرة إلا بحذر شديد، حتى لا يقع في الاعتداء المنهي عنه شرعًا. فلا يجوز قتل المستسلم أو من اعتنق الإسلام، ولا مطاردة الفار ولا التمثيل ولا القتل بدون حاجة، ولا الفساد في الأرض كالتدمير لمقدرات المقاتلين إلا للضرورة القصوى، والضرورات تقدر بقدرها بالطبع.

إن الجهاد أوسع مساحة، لأنه ممتد زمانًا ومكانًا وأناسًا بدون حدود، ولذا فإن مدخلاته أكثر بكثير من مدخلات القتال. وأهم مدخلات الجهاد هي الأموال، لأنها التي تقوم بتربية وتنمية الأفراد وخدمة حقوقهم وتلبية متطلباتهم، وإيجاد المشاريع العملاقة التي تستثمر طاقات الأرض في عمارتها؛ زراعة وصناعة ورعيًا وصيدًا وتجارة. وقد اقترن ذكر الأموال والأنفس في القرآن في اثني عشر موضعًا، فتقدمت الأموال في أحد عشر موضعًا، لأن الجهاد أحوج إلى الأموال أكثر من الأنفس، ولم تتقدم الأنفس إلا في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾(التوبة:١١١)، لأنها جاءت في سياق الحديث عن القتال، والقتال يحتاج إلى الأنفس أكثر من الأموال، ثم إن سياق الآية يتحدث عن شراء الله ﷻ لما يملكه الإنسان، ومن الطبيعي أن نفس الإنسان أغلى عليه من ماله، فبدأ الله ﷻ بما هو أثمن.

وفي عصور التخلف أصيبت مجاميع كبيرة من المسلمين بالأمية الفكرية نتيجة ضيق دائرة وعيها، وانعكس هذا الضيق على تضييق كثير من الدوائر المتسعة، مثل دائرة العبودية التي هي بسعة هذه الحياة، لكن هؤلاء ضيقوها على الشعائر التعبدية، وفي دائرة العلوم الشرعية التي كانت تتسع لكل العلوم التي تساهم بجلب مصلحة أو درء مفسدة للمسلمين في معاشهم أو معادهم، ضاقت الدائرة لتضم فقط ما يُعرف اليوم بالتخصصات القائمة في كليات الشريعة والدراسات

إن الإسـلام لا يقبل الإيمان ما لم يكن ناتجًا عن قناعة كاملة واختيار ذاتي حر. وإن غاية الإسلام العظمى هـي إصلاح البنى السياسـية والاجتماعية المعوجة التي لا تسمـح بحرية الحركة للفكـرة الإسلامية، بحيـث تستطيـع الدعـوة الوصـول إلى الناس، ويستطيعون العبور إليها إذا أرادوا بدون موانع.

الإسـلامية، ولتخـرج كل العلوم الإنسـانية والطبيعية من هذه الدائـرة. ومثـل مصطلحي العبـادة والعلوم الشـرعية، ضاقت مصطلحات الأخلاق، رحمة الله، جماعة المسـلمين، وبالمثل ضاقـت دائرة الجهاد لتضم فقط القتال. ولذلك فإن من يذكر الجهـاد اليوم يقصـد في الغالب القتال، أو علـى الأقل يتبادر إلى أذهان السامعين القتال.

الجهاد الكبير.. جهاد الإعمار

القتال في الرؤية الإسـلامية هو آخر مراتب الجهاد، سواء من ناحيـة عدم اللجوء إليـه إلا للضرورة، مثل عمليات البتر لأي عضـو فـي الإنسـان، إذ لا يلجأ الطبيب للبتر إلا بعد اسـتنفاد كل الأدويـة، مـع اسـتمرار المشـكلة في التصاعـد، والتهديد بتضخمهـا أو الإنـذار بتحولهـا إلى مشـكلة عاصفة بالجسـم كله، أو من ناحية عدم اسـتخدامه إلا بعد إيجاد البنى التحتية الأخـرى التي تجعله خيارًا ضروريًـا وناجحًا في آن، لضمان تحقـق الهدف بأقـل الخسـائر المادية الممكنـة وبأقل وقت، ولذلك رفض الرسـول ﷺ القتال في مكة، لأنهم لم يستنفدوا أسـباب الدعـوة (الجهـاد) ولم يسـتكملوا البنيـة التحتية التي سـتتحمل أعبـاءه. وقد يرى غيـر المتفقهين في الإسـلام من أبنائـه أن القتال خيار قريب المنـال؛ نتيجة عجزهم عن القيام بأعباء الجهاد وتوفير متطلباته، سواء على المستوى الفردي أو على المستوى الجمعي.

ومـن أمثلة المسـتوى الفردي، مـا كان يفعلـه الجاهليون العـرب الذيـن كانـوا يزعمون أنهم علـى ديـن إبراهيم، ومع ذلـك فإن عجز بعضهم عن تحمل أعبـاء طلب الرزق لكفاية الأولاد -وهـو مـن صـور الجهـاد- دفعهـم إلى قتـل هؤلاء الأولاد، فنهاهـم القـرآن قائـلًا: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاَقٍ﴾(الإسراء:٣١).

أما بالنسـبة للمسـتوى الجمعـي، فإن أبرز مثـال له اليوم، لجـوء بعـض التيـارات إلـى القتال، إمـا ضد الغـرب أو ضد الحكومـات القائمـة فـي بلـدان المسـلمين، تحـت عنـوان "الجهاد"، نتيجة العجز أو عدم الصبر عن تحمل أعباء الجهاد الحقيقـي؛ جهـاد التربية والتعليـم، جهاد المدافعة واسـتثمار السـنن، جهاد العلـم والعمل، جهاد الإنتـاج والتنمية، الجهاد السياسـي والاجتماعي، الجهاد الإعلامي والثقافي... الجهاد الذي يستثمر طاقات القرآن غير المحدودة، وفاعلياته العظيمة، وقـواه الذاتية المطلقة، فـي تعظيم فاعليات الناس بربطهم به، وانطلاقهـم منه، ودورانهـم حول محاوره، وسـعيهم لتحقيق مقاصـده، وصـولًا بهـم إلى الـدوران حـول فلك الإسـلام، والسعي الحثيث في كل شُعب الإيمان.

ولهذا أمر الله ﷻ رسـوله ﷺ بـأن يجاهد الكافرين بالقرآن فقـال: ﴿فَـلَا تُطِـعِ الْكَافِرِيـنَ وَجَاهِدْهُـمْ بِـهِ جِهَـادًا كَبِيـرًا﴾(الفرقان:٥٢)، وهـذا الأمر كان في مكـة المكرمة وقبل أن توجد الدولـة الإسـلامية في المدينـة المنورة، بما يؤكـد أن الجهاد مرتبـط بالدعـوة، بينمـا يكون القتـال ألصق بالدولـة التي من حقهـا اللجـوء إليـه عندما تسـتكمل مفردات الجهـاد الكبير، متمثلة بالدعوة إلى القرآن وتعليمه واكتشـاف كنوزه وهداياته وتطبيقها في الواقع، حتى تكون الدولة أداة لخدمة حقوق الله وحقـوق النـاس، وإقامة كل معروف وهـدم كل منكر، مما له صلة بواقع الناس معاشًا ومعادًا، ولهذا وصف الله ﷻ القائمين على السـلطة الإسلامية فقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾(الحج:٤١).

وبالقرآن صارت جاذبية "الدعوة" أقوى من تأثير "الدولة"، ولذلك دخل الناس في الإسلام أفواجًا، متأثرين بالقوة الذاتية للقرآن، إذ نجح في مناجاة القلوب ومخاطبة العقول، جامعًا بين الإقناع والإمتاع، مع كونه زادًا للروح وداعية للتزود بكل حاجات الجسم، وظهرت محاسنه بالأمس بسبب حسن تمثل الصحابة لقيمه ومقاصده، حتى صاروا قرآنًا يتحرك على الأرض. لقد دخل الناس في الإسلام عندما فتح القرآن عقولهم وقلوبهم، ولذلك ذكرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن المدينة المنورة فُتحت بالقرآن. والحقيقة أن كل الفتوحات التي تحققت في العقود الأولى من تاريخ أمة المسلمين، كان القرآن هو سببها وأداتها، هداية وإعجازًا. أما القوة المسلحة، فقد كانت وظيفتها فتح الأبواب الموصدة، من أجل دخول الدعاة من حملة القرآن الذين أحسنوا حمله أفكارًا وأفعالًا، فصاروا إعلانات متحركة لعظمة هذا القرآن، بما يؤكد أن الدولة كانت مطية للدعوة، وأن الدعوة هي التي أقنعت الشعوب بالولوج إلى الإسلام، احتماءًا بعبادة رب العباد من عبادة العباد، واعتصامًا بعدل الإسلام من جور الأديان.

الدولة مطية الدعوة

في المرحلة المبكرة من تاريخ هذه الأمة، أحسنت الدولة حمل الدعوة الإسلامية بأفعالها أكثر من أقوالها، وبشرائعها لا بشعاراتها، حتى صارت مطية للدعوة، أوصلتها إلى كثير من شعوب الأرض، لكنها لم تتدخل في إدخال الأفراد في الإسلام. فقد كانت هذه مهمة الدعوة الإسلامية القائمة على الحكمة والموعظة الحسنة، وعلى المحاورة والإقناع.

فإن الإسلام يؤمن بالعالمية لا بالعولمة، وهو لا يقبل الإيمان ما لم يكن ناتجًا عن قناعة كاملة واختيار ذاتي حر. ويمكن القول بطمأنينة قائمة على قراءة واعية لوظيفة القتال في الإسلام، أن غايته العظمى هي إصلاح البنى السياسية والاجتماعية المعوجة التي لا تسمح بحرية الحركة للفكرة الإسلامية، بحيث تستطيع الدعوة الوصول إلى الناس، ويستطيعون العبور إليها إذا أرادوا بدون موانع. فإن القتال يكون آخر الأدوية في صيدلية "الجهاد"، بل هو على وجه أدق، غرفة العمليات في مستشفى الجهاد. ولذلك نستطيع القول إن كل الشعوب الإسلامية دخلت إليه من أبواب الفتوحات الناعمة.

الفتوحات الناعمة الصرفة

وإذا كان هناك شك في أن القرآن هو فاتح الشعوب الأولى التي وصلتها جيوش المسلمين، فإن الأقدار قد هيأت نماذج لا لبس فيها، إذ لم يصل إليها أي جندي مسلم وأعداد أبنائها اليوم يساوون قرابة نصف العدد الإجمالي للمسلمين، ويتوزعون في ثلاث مناطق رئيسة في العالم، هي:

منطقة جنوب شرق آسيا: هذه المنطقة كانت تدين بالديانة البوذية وبعض الوثنيات المحلية، وتضم اليوم حوالي ٢٥٠ مليون مسلم، وهم سدس مسلمي العالم، ويتوزعون في عدد من البلدان تبدأ من أقصى الشرق بالفيليبين وتنتهي بجزر المالديف في وسط المحيط الهندي، وبينهما أندونيسيا وماليزيا وبروناي، وهي شعوب ذات أغلبية إسلامية كبيرة إلى اليوم رغم كرّ الليالي وفرّ الأيام.

وهناك أقليات كبيرة في الفيليبين، وتتركز في إقليم مورو (مندناو) وتشكل ١٢٪ من سكان الفيليبين، ومثلها في تايلند التي يتركز المسلمون فيها في الجنوب في إقليم "فطاني" المحادد لماليزيا، وتوجد أقلية في بورما تتركز في إقليم "أراكان" المحادد لبنجلاديش، إضافة إلى أقلية في سنغافورة وهي الدولة التي اقتطعها الإنجليز من ماليزيا، الدولة الإسلامية الأقوى علميًا وصناعيًا في هذه المنطقة، بل وفي العالم. وفي كل مراحل التاريخ القريب تناقصت أعداد المسلمين -ولولا القوة الذاتية للإسلام- وقناعة أولئك الناس بالإسلام، نتيجة جودة الدعوة التي قامت بها كتائب الفتوحات الناعمة عبر التجار العرب، ولا سيما الحضارمة منهم، لصار المسلمون في هذه المنطقة أثرًا بعد عين.

منطقة القرن الإفريقي وشرق إفريقيا: رغم أن طلائع المسلمين وصلت إلى هذه المنطقة في وقت مبكر من تاريخ الدعوة أثناء هجرة مسلمي مكة إلى الحبشة، إلا أن قلة المسلمين لم تمكنهم من تحقيق فتح كبير لهذا الدين، وخاصة أنهم عادوا بعد قيام دولة الإسلام في المدينة المنورة. وعندما انداحت فتوحات المسلمين التي كانت الدولة فيها مطية للدعوة، لم يصل أي جندي إلى هذه المنطقة، وفي أوقات متتابعة كانت كتائب الفتوحات الإسلامية تشق هذه المجتمعات، فاتحة بأخلاقها الزاكية ومعاملاتها الرائعة قلوب الناس وعقولهم لهذا الدين.

واليوم وبعد قرون من التخلف والتراجع ما تزال هذه

المنطقة تضم شعوبًا ذات أغلبية مسلمة في الصومال وجيبوتي وتنزانيا وإرتيريا وجزر القمر، بل تعربت أكثر هذه الشعوب، وثلاثة منها اليوم هي أعضاء في جامعة الدول العربية، إضافة إلى وجود أقليات إسلامية كبيرة في كل دول المنطقة، ولا سيما في أثيوبيا، وكينيا، وموزمبيق.

منطقة غرب إفريقيا وجنوب الصحراء: في هذه الظروف العصيبة التي توقف فيها المد الإسلامي تذكر الأرقام الرسمية الموثقة، أن هذه المنطقة توجد فيها خمس عشرة دولة تفوق نسبة المسلمين فيها الـ٧٠٪، وتليها عشر دول تزيد نسبة المسلمين فيها عن الـ٥٠٪ من مجموع السكان. إضافة إلى وجود نسب أقل في كل دول المنطقة. طبعًا هذه الأرقام قائمة بعد عقود طويلة من الاستعمار الغربي لهذه البلدان، ولا سيما فرنسا التي أخذت نصيب الأسد فيها، وبعد قرون من الجَزْر الإسلامي الذي قابله مد مسيحي قوي، لكن بقاء قرابة مائتي مليون مسلم في هذه المنطقة، إنما هو تجسيد لقوة هذا الدين الذاتية، وتأكيد على أهمية وعظمة الفتوحات الإسلامية الناعمة، إذ لم يصل أي جندي مسلم إلى هذه المناطق الشاسعة من الأرض، بل وصلها التجار الذين كانوا يُسوِّقون أفكارهم الإسلامية الثمينة قبل بضائعهم، بجانب رجال التصوف الذين لعبوا دورًا مشهودًا وسط شعوب هذه المنطقة التي تضم أكبر الشعوب الإسلامية في قارة إفريقيا قاطبة، وهو الشعب النيجيري الذي يزيد سكانه عن ١٤٠ مليون، ٦٥٪ منهم -على الأقل- مسلمون.

ويكفي الفتوحات الناعمة فخرًا أنها جذبت إلى الإسلام أكبر شعب مسلم في قارة آسيا وهو الشعب الأندونيسي، وأكبر شعب مسلم في إفريقيا وهو الشعب النيجيري. وتوجد في العالم مناطق وبلدان أخرى انتمت إلى الإسلام، حبًا بالدعوة وإعجابًا برجال الفتوحات الناعمة، مثل بعض المناطق في جنوب الصين، وشمال آسيا، حيث المناطق التي تقع شمال القوقاز، وحتى سيبيريا التي تمتد من روسيا إلى المحيط الهادي، وهي المناطق التي لعب الدعاة والتجار الآتين من بخارى، دورًا كبيرًا في إسلام كثير من أهاليها. وينطبق مثل هذا الكلام على شبه جزيرة القرم التي تقع شمال شرق أوربا، وهي اليوم جزء من جمهورية أوكرانيا.

وإذا كانت الكتائب العسكرية قد انهزمت أمام اجتياح المغول والتتار للدولة العباسية، إذ تساقطت مثل أوراق الخريف، فقد رفعت الكتائب الناعمة لواء الإسلام عاليًا، حتى نجحت في إقناع الغزاة باعتناق الإسلام. ولأول مرة في تاريخ البشر يقوم الغالب بتقليد ثقافة المغلوب إلى حد اعتناق عقيدته، مما يؤكد جدارة الفتوحات الناعمة، ويثبت أنها الأكثر لياقة بمقاصد هذا الدين العظيم وعالميته الإنسانية الرحيمة، ويؤكد انتصار القلم على السيف، والمداد على الدم.

المستقبل للكتائب الناعمة

من يرى قوافل العلماء والباحثين الغربيين الذين يهاجرون سنويًا إلى الإسلام، يدرك عظمة هذا الدين، لكنه يدرك أيضًا خطورة انحطاط المسلمين، إذ ما زال الإسلام أشبه بجوهرة بيد فحام. ويستغرب كل من يتعرف على الإسلام لبعد المسافة القائمة بين تقدم الإسلام وتخلف المسلمين. ولذلك فإن المسلمين لو جَسَّروا المسافة القائمة بينهم وبين إسلامهم، لصار ذلك فتحًا عظيمًا لهذا الدين.

فالعصر عصر الإسلام لولا سلوكيات المسلمين التي صارت فتنة للذين كفروا. فكيف لو أضيف إلى ذلك تشجيع الجهاد المدني الممنهج؟ هذا الجهاد الأبيض الذي يتسق مع طبيعة هذا الدين، ويمكنه الانغراس بسهولة في قلب هذا العصر.

إن المستقبل للجهاد الأبيض الناعم، فإن اليد في الرؤية الإسلامية، لا تمتد إلا إذا مُنع اللسان من التمدد، ولا يتدخل السيف إلا إذا كُسر القلم. في الجهاد المدني لا تتحرك الدبابة ما دامت أقدام الدعاة تدب على الأرض بحرية، ولا تنطلق الطائرات مغيرة على أحد ما دام صوت الإسلام يطير عبر أثير الإذاعات وقنوات التلفزيون... والأيام تثبت أن هذه القنوات ومواقع الإنترنت، أسرع وأكثر فاعلية من الصواريخ والبوارج الحربية في تطيير حقائق الإسلام وأوضاع المسلمين إلى كل بيت في العالم، لأن الإسلام عظيم، ولأن قضايا المسلمين عادلة.

هذا هو العصر الذهبي للجهاد الأبيض، إذا أحسن المسلمون استثماره، فإن "الكتب" يمكن أن تسد مسد "الكتائب"، و"الصحف" يمكن أن تقوم مقام "الصفائح"، وتأثير "أسهم" الشركات أقوى من "سهام" الجيوش، وفاعلية "فرق" الدعوة المدنية أفضل من "فرق" الدولة المسلحة. ■

(*) أستاذ مشارك للفكر الإسلامي السياسي بجامعة تعز / اليمن.

د. مريم آيت أحمد*

حوار الذات

مدخل أساس لحوار الآخر



تـؤدي الممارسـات التقليديـة فـي المعامـلات، بـدءًا مـن البيت والمدرسـة والمجتمع إلى السـلبية. ومن هذه الممارسـات، عدم التربيـة على الحوار وسـيادة الطرق التسـلطية، وعـدم منح الفرد فرص التصرف والتدخل لحل مشـكلاته والمسـاهمة في اتخاذ القرارات والعمل علـى تنفيذهـا. كل ذلـك يؤدي بالشـباب -مع مـرور الزمن- إلى تميزه بالسـلبية والاتكالية، وغياب الجرأة على مواجهة المشكلات المطروحة أمامه داخليًا، لأن عـدم تأهيـل وتدريب أبنائنا على الحوار، يؤدي بهم إلى رفض الآخر، كما يرفض رأيهـم داخل البيت والمدرسـة والمجتمع، ومن ثَم عـدم الثقة بالنفس وبقدراتها، وسـيادة عقليـة المؤامـرة والإحبـاط عِـوض عقليـة الإرادة والإنجـاز والفاعلية

والمشـاركة. وهكـذا فـإن الممارسـات التربويـة والأسـرية والاجتماعية، تسـاهم في تدعيم سمات السلبية الحوارية عند الشباب داخل مجتمعاتهم.

فكيـف يمكـن الحديـث عـن الآخـر الخارجـي وتجاوز عوائق الحوار الداخلي؟ هل أعددنا شبابًا قادرًا ومؤهلًا معرفيًّا وسـلوكيًّا ودينيًّـا وفكريًّـا وسياسـيًّا وتكنولوجيًّـا وإعلاميًّا... لمحـاورة الآخر الحضـاري من موقع النّديّة، والمشـاركة في المنجـز الحضـاري لا مـن موقـع الدونيـة ورد الفعـل الآني والتبريري لمواقف يصدرها صانعو ثقافة الصراع الحضاري؟

إن شبابنا يدرك يقينًا أن المهمة التي يقتضيها حوار الداخل، لا تقـل أهمية وخطورة عن حوار الخارج. قد نتفاءل بالتأطير النظري لأسـس ومقومات هـذا الحوار الخارجـي، لكن الواقـع -ونعني الواقع الداخلي- يحتوي قدرًا من العوائق التي تحتاج إلى نظر أوسـع وأعمق، أشـجع وأشفى من الثقة الزائدة بسلامة معطياتنا الفكرية والتاريخية.

مفتاح الحوار الثقافي

إن الحـوار الإسـلامي بيـن مكونـات الذات قـد يكون مفتاحًـا حقيقيًّا لحوار ثقافـي مـع الآخـر. فمثل هذا الأسـاس يجعل الحوار يسـتند إلـى القوة ويراهن علـى القـوة. ومن دون القوة واسـتمرار الاختلالات البنيويـة الداخلية والصراع الداخلـي، فإن الحوار لن تقوم له قائمة؛ معنـى ذلـك أن أمةً مـا لا تملك مفاتيح الحـوار الداخلـي، كيف تتمكن من إجراء حـوار مع الآخر؟! وحتـى لـو تحدثنا عـن تعارف ثقافـي، فالأمة التـي لا تعرف نفسـها ولا تـزال تمارس التجهيل والنسـيان في حـق أبنائها، وتتنكـر لبعضهـا البعـض ولتاريخهـا وجغرافيتهـا، هـي -بلا شك- أعجز عن أن تقيم تعارفًا بينها وبين الآخر.

وبلا شك، فإن عنوان "الأمة الإسلامية" غير كاف، طالما أن الحوار "الإسلامي-الإسلامي" يفرضه التنوع الثقافي للمجال الإسـلامي، ممـا يقتضي تعارفًا وحـوارًا ثقافيًّـا داخليًّا. حوار "إسلامي-إسـلامي" وأيضًا حوار "إسلامي-مسيحي"، باعتبار الأمة الإسـلامية تتسع لإطارات ثقافية أخرى وأقليات متنوعة ومختلفة ومتعايشـة. إن ثمة فرصة أمام العالم الإسـلامي في أن يقـدم للعالـم نموذجًا حواريًّا؛ يبدأ بأن يقيم نموذجًا داخليًّا مصغرًا عن حوار الثقافات يزيد في دعمه وتعزيزه وإنجاحه.

فديننـا أصّل للحوار مع الآخر نظريًّـا وتطبيقيًّا، وتاريخنا الإسـلامي زخـرت صفحاتـه بنمـاذج جـدّ راقية فـي التطبيق العملـي لأدبيـات الحـوار، وأسـس ومرتكـزات التعايش مع الآخر دينيًّا وفكريًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، في الشام والأندلس وصقلية وسـمرقند، لكننا اليوم كمجتمعات وأفراد، لسـنا من يعلِّـم العالم هذه المبادئ والقيم والمُثل العليا بالأوضاع التي نحن عليها. فعلينا أولا العمل على إعادة صياغة العقل العربي والمسلم بما يؤهِّله للتعمُّق في عناصر قوة حضارته، ليكتشف عناصـر التقـدّم والنهـوض والمكوّنات الحيَّـة في الحضـارات، ونفهم منطلقها الداخلي وقوانينها في التقدّم ومحركات التاريخ فيها.

> **إنه قد آن الأوان اليوم مع الثورة الإعلاميـة وانفتـاح العالم على بعضه، أن يصوّب شبابنا الرؤية والموازنـة بين العاطفـة والعقل كشرطين أساسيين، لحسن إدارة مستويـات التحديات بالحكمة التـي لا يَقْدر على استيفائها إلا أهـل الفكر والعلـم من شباب الأمة.**

الشباب وسؤال "مَن الآخر؟"

لعل أول سـؤال يتبادر إلى أذهان شبابنا -ونحـن ندعوهم للحوار- هـو تحديد ماهية الآخر الحضاري المعنيّ بالحوار؟ وقد نحصر الإجابة في ثلاثة محاور:

١- إن هذا الآخر الذي نريد الحوار معـه، يتمثـل عادةً فـي العقـل الجمعي لمفكرينـا وشـبابنا فـي الغـرب، وكأن العالـم كله الآن يتجسَّـد في هذه القبلة؛ فمـن حدّد الآخر وجعله الغرب وحده؟ ومـن قـال إن الثقافة الغربيـة هي الثقافة الوحيدة في العالم؟ علمًا بأن هناك ثقافات أخرى منها الثقافة الصينية والهندية واليابانية، وهناك ثقافات دول أمريكا اللاتينية، بل إن هناك ثقافات موزعة من إفريقيا إلى آسـيا متنوعة وغنية لسنا على علم بخصائصها ومكوناتها الثقافية والفكرية. ولهذا فإن من الخطأ أن نتصور أن الثقافة الغربية هي الثقافة الوحيدة التـي ينبغـي أن نتحـاور معهـا. فالحضـارة الصينية مـن أكثر الحضارات امتدادًا في أعماق التاريخ مع وجود عصري واضح ومميز، واليابـان التي تمثل الآن أحد أركان المنظومة الكونية فـي التقدم العلمي والتكنولوجي، لهـا جذورها التقليدية التي تحرص عليها ولم تفرط فيها، وكذلك دول شـرق آسـيا التي

لحقت بالعصر دون أن تفقد امتدادها التاريخي، وهناك نماذج إسلامية واضحة حافظت على عقيدتها وجذورها ولم تتخلف عـن العصر بكل إنجازاته، وفي شـرق آسـيا أكثر من نموذج، حقق هذه المعادلة مثل ماليزيا وأندونيسيا. وهذا لا يعني إلغاء الحـوار مـع الغرب بأي حـال من الأحوال في إطـار التلاقح الثقافي والمعرفي والتكنولوجي؛ لأن الانفتاح والتلاقح سـمة من سـمات البناء الحضاري في الإسـلام. هذا وعلى شـبابنا اليـوم أن يـدرك أنـه -وإن كان التواصل مـع الوجه الآخر من الغرب، في غمرة الغضب والمرارة وردود الفعل التي أعقبت الغـزو الاسـتعماري لبلداننا مرتبـط باسـتبداد وتصاعد وتيرة العنـف مقابل ضغط وتقليص ملَكات التفكير، فبدا لنا الغرب بانتهاكاته التاريخية وكأنه شـرٌّ كله- فإنه قـد آن الأوان اليوم مع الثورة الإعلامية وانفتـاح العالم على بعضـه، أن يصوّب شـبابنا الرؤيـة والموازنـة بيـن العاطفة والعقـل كشـرطين أساسـيين، لحسـن إدارة مستويات التحديات بالحكمة التي لا يَقْـدر علـى اسـتيفائها إلا أهل الفكر والعلم من شـباب الأمة. وفي إطار هذا التصويـب، لابد مـن الإقرار بأن الغرب ليس كتلـة واحدة، بـل تخترقه وتختمر داخلـه تيـارات واتجاهـات وأصـوات رافضة لقيم المركزية الغربية المسـتبدة، ومـا المظاهـرات الصاخبـة والمناهضة للحـرب علـى منطقتنـا التـي عرفتْهـا عواصـمُ الغرب وحملات التعاطف مع العـراق، إلا وجه مـن وجوه غربٍ آخر مغايرٍ لغرب التسـلّط والاسـتكبار. وهذا يتطلـب من الباحثين الشـباب أن يوجدوا قنوات التواصل مع هذا الوجه الآخر من الغرب، مسـتثمرين تضامنـه مـع قضايانا ورفضـه لقيم غيّبت مركزية الإنسـان في الكون، وتبنَّت منهج العنف والبقاء للأصلح في سوق النخاسة العالمي. إن فتح شـبابنا لقنوات التواصـل مع هؤلاء أكاديميًّا وفكريًّـا وإعلاميًّـا، سـيحوّلهم إلـى أقـلام تنقـل بموضوعيـة قضايانـا العادلة، إلى قلب المجتمع الغربي الذي يحكم علينا انطلاقًا مما تداوله وتسـوّق لترويجه بعض الدوائر الإعلامية والسياسية المتعصبة.

٢- لا يمكـن تصـور حوار من طرف واحد، لأن بديهيات الحـوار أن يكـون بيـن طرفيـن، وبيـن وجهتي نظـر. وعندما يصبح الحوار حديثًا من طرف واحد، فهو يفقد أبسـط قواعد الحـوار. ومـن هنـا يجب أن يكون الحوار سـعيًا مـن جانبين وليس من جانب واحد، لأن مقصد الحوار مع الآخر لا يعني أن أقـول لـه ما أريد، ولكن أن نصـل معًا إلى صيغة لما نريد. وإذا تحول إلى اسـتجابة لمطالب طرف واحد فهو يدخل في نطاق الوصاية والهيمنة والتبعية.

ومـن جانـب آخـر، فشـروط الحـوار تقتضي من شـبابنا الانفتـاح بثقـة عاليـة ورفـض عقليـة قداسـة الـذات وإقصاء الآخر بدعوى المؤامرة من جهة، كما تقتضي من جهة أخرى توضيح سـلبيات وهفوات نغمة التعالي التـي يتحاور بها هـذا الآخر معنا تحت شـعار "الإسـلاموفوبيا"، ومـا تتداولـه مـن تسـويق لمنتجاتها تربويًّـا وإعلاميًّا وسياسـيًّا. فشـبابنا في حاجة إلى ترشيد وتأهيل كوادر تشارك في عملية الإنجاز والفاعليـة الحضاريـة بمسـتوى النديـة على كافة المستويات، لا بخيار الانعزال والهروب بانكسـار وانهزام من مواجهة تحديات المتغيرات العالمية.

إن أمةً ما لا تملك مفاتيح الحوار الداخلي كيف تتمكن من إجراء حوار مـع الآخر. إن ثمة فرصة أمام العالم الإسلامي في أن يقدم للعالم نموذجًا حواريًّـا؛ يبدأ بأن يقيم نموذجًا داخليًّا مصغرًا عن حوار الثقافـات يزيد في دعمه وتعزيزه وإنجاحه.

٣- لا يمكـن أن تتجـه كل جهـود عقول شـبابنا إلى الحـوار مع الآخر في الوقـت الـذي يهملـون فيـه تمامًا -عن قصد وسوء توجيه- الحوار مع ذواتهم؛ لأن الأمانـة تقتضـي أن يكـون الحـوار أولا بيننـا، ولكن إذا كان بعض شـبابنا يرفض الحوار بدعوى الممانعة، وينزوي في محراب قداسة أيديولوجية فكره ومذهبه، ويطالب باسـتخدام أسوأ أشكال المصادرة والمطاردة مع كل فكـر آخر يخالفه، فإنـه يكون مخالفًا لمفهـوم الممانعة الذي لا يعني التقوقع داخل الذات، بقدر ما يقتضي تحقيق الشـاب المسلم لدوره الاسـتخلافي في الأرض بمواجهة التحديات، واعتمـاد فقه الموازنـات والأولويات مراعاة لتـوازن مصالح دينه ووطنه ومجتمعه وأمته العربية والإسلامية. ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل / المغرب.

د. إبراهيم شوقار*



العدالة

ومظاهر الخلل في الحضارة المعاصرة

مقاربة في رسائل النور

إن العدالة حكمة إلهية، بها يتحقق مقتضى سنن الكون في الوجود لتجري نحو غايتها جميعُ الكائنات، وهي أيضًا قيمة الإنسانية، بها يسود منهج الحق ويتحقق مقتضى سنن الشرع في المجتمعات، وهي أيضًا غاية أصلية للشرائع السماوية التي جاءت قاطبة لتحقق العدالة في الأرض، لتكون البشرية بسائر أجناسها وأعراقها وثقافاتها، أمام ميزان العدل والإنصاف، إذ قال تعالى:﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥). فهذا الكون -كما يرى العلماء- يجري في توازن دقيق ووفق عدالة عامة نابعة من التجلي الأعظم لاسم الله "العدل"، وهي تدير موازنة عموم الأشياء وتأمر البشرية بإقامة العدل. وبمراعاة هذا الميزان الإلهي، سواء في جانبها الشرعي باتباع صراط الدين الذي بيّنه الرسل: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾(النحل:٩٠) أو بالتمثل لسنن الحق

في نواميس الكون، قدمت البشرية كثيرًا من النماذج المشرقة للوحدة والتجانس والأمن والسلام، في ظل تباين ثقافي وديني وعرقي للمجتمعات، وتجاوزت بذلك كل الكوارث وويلات الحروب الطاحنة وما يرافقها من خراب ودمار.

ولكن لما كانت النفس البشرية مطبوعة على الطغيان -وهو إخلال بميزان العدل بكل معانيه- صارت هنالك جوانب مظلمة في تاريخ المجتمعات غطتها ركام من المظالم والمتناقضات. أما في هذا العصر، فيرى المرء أصنافًا شتى من الإخلال بميزان العدل في سائر أرجاء العالم، بل حتى البيئة والطبيعة تأثرتا بالنشاط الإنساني المخل بالتوازن. فعلى خلاف ما يرجوه أي ضمير إنساني، تقف البشرية اليوم على منعطف حاسم في وجه تقلبات الحركة التاريخية، حيث فقدت عنصر "التوازن" في سائر مظاهر حياتها. فالمجتمعات البشرية تعاني اليوم من قلة الطمأنينة باختلال التوازن بين متطلبات النفس والروح، وتعاني من خوف رهيب بسبب الحروب المدمرة وغيبة الأمن، الناتجة عن اختلال التوازن بين تطور المعارف والعمل بالقيم الروحية، وتعاني من قلة السلام الاجتماعي نظرًا لغياب العدالة الاجتماعية واتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء.

وإلى جانب كل ذلك، تعاني الإنسانية اليوم من كوارث طبيعية مهلكة، بسبب اختلال التوازن البيئي بما كسبت أيدي الناس. فكل هذه إنما هي مظاهر للخلل في عناصر "العدل والتوازن" في الحياة، لأن الله تعالى بحكمته العجيبة، قد أوجد هذا الكون على توازن عجيب. وقد تنبأ بديع الزمان "سعيد النورسي" ببصيرته النافذة وفكره الثاقب، إلى كل هذه التناقضات وعبّر عنها بقوله: "سيكون زمان يُخفي الضدُّ ضدَّه، وإذا باللفظ ضد المعنى في لغة السياسة، وإذا بالظلم يلبس قلنسوة العدالة، وإذا بالخيانة ترتدي رداء الحمية بثمن زهيد، ويُطلق اسم البغي على الجهاد في سبيل الله ويسمّى الأسر الحيواني والاستبداد الشيطاني حرية".

هذا الوصف يبيّن درجة الانقلاب في القيم والانحراف في المعايير الأخلاقية، ويظهر بجلاء التطابق بين عناصر هذا الوصف والعصر الذي نعيش فيه، أي إن "الزمن" الذي أشار إليه النورسي قد جاء أوانه وحلّ وقته. إذن ما الحل؟ وما الوسائل المتاحة والبدائل المتوفرة لرفع هذه التناقضات بشتى صورها، وإعادة العدل والتوزان في المجتمعات البشرية وفي البيئة، لتهنأ الإنسانية بالسلم والأمن والرفاهية؟

الإجابة المبدئية لهذه التساؤلات في نظر النورسي، هي أن الإنسان قد صار متمردًا على نظام المشيئة الإلهية، سواء كان في جانبه الكوني أو الشرعي أو الجانبين معًا.

مفهوم العدالة في فكر النورسي

إن ما جاء به المرسلون من الشرائع وفق قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥) قسمان، قسم مطلق (ثابت)، وقسم نسبي (متغير) يراعي حاجة الإنسان الزمانية والمكانية فيتبدل وفق الأزمنة والعصور.

أما القسم الأول فلا يقبل التطور والتبدل مهما تعاقبت العصور، ويجب المحافظة عليه على الدوام لأنه يتعلق بغاية الإنسان في الوجود، وإنْ انحرف عنه الزمان فإنما هذا دليل على فساد الزمان لا على فساده. وهذا القسم الثابت هو أصل الدين والقيم. والقيم إما أن تتعلق بالجانب الشخصي للإنسان وهو الأخلاق، وإما أن تتعلق بالجانب الاجتماعي وهي العدالة: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. ووفق الأصفهاني، فإن العدالة والمعادلة في اللغة، ألفاظ تقتضي معنى المساواة، والعَدْلُ والعِدْلُ (بالفتح والكسر) يتقاربان في المعنى، ولكن يُستعمل الأول (العَدْلُ) فيما يُدْرَك بالبصيرة كالأحكام كما جاء في قوله تعالى:﴿أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾(المائدة:٩٥). أما "العِدْلُ" و"العَدِيل" فيستخدمان فيما يُدْرَك بالحاسة، كالموزونات والمعدودات. فـ"العدالة" في الاستخدام القرآني، تأتي على ثلاثة أوجه على سبيل الإجمال:

١- العدالة بمعنى المساواة في التعامل: وينطبق هذا المعنى بالأساس على المعنويات، لذلك تتحقق صحته وفق المجال الذي تطبّق فيه العدالة كالمساواة أمام القانون، ولأن المساواة المطلقة في المعنويات قد لا تحقّق غاية العدالة، قال تعالى: ﴿ثُـمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾(الأنعام:١)، أي يساوون الخالق بالمخلوق وهو عين الظلم والجور.

٢- العدالة بمعنى التوازن في الأشياء؛ أي التقسيط على سواء بانتفاء الخلل والعيب والنقصان. ويتجلى هذا المعنى بصورة أساسية في الماديات، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾(الأحقاف:٣)، ويفسره قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾(الرحمن:٧-٨)، أي إن العدالة والتوازن المشهود في

إن ما جاء به المرسلون من الشرائع قسمان؛ مطلق (ثابت)، ونسبي (متغير) يراعي حاجة الإنسان الزمانية والمكانية فيتبدل وفق الأزمنة والعصور. أما المطلق فلا يقبل التطور والتبدل مهما تعاقبت العصور، ويجب المحافظة عليه على الدوام لأنه يتعلق بغاية الإنسان في الوجود، وإنْ انحرف عنه الزمان فإنما هذا دليل على فساد الزمان لا على فساده.

حركة الكون، يجب أن يكون دافعًا ومحفّزًا للإنسان على إقامة العدل في المجتمع البشري. وهو المعنى الذي قصده النورسي بقوله: "إن العدالة العامة الجارية في الكون، النابعة من التجلي الأعظم لاسم "العدل"، إنما تدير موازنة عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل". والعدالة بهذا المفهوم هي سنة إلهية في الكون، تتجلى من خلال القوانين التي تحكم حركة الموجودات في الحياة الطبيعية.

٣- العدالة بمعنى الجزاء بالمثل؛ أي الجمع بين المتماثلات والتفريق بين المختلفات، وهي صورة معنوية تتجلى من خلال الحكمة الإلهية المطلقة في تصريف شؤون الخلق، ولا سيما في المجتمع البشري، وهي ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(القلم:٣٥-٣٦). فالله تعالى من حكمته ورحمته، لا يساوي بين أهل الإيمان والكافرين به في الأحكام، ولا يساوي بين دعاة السلم والأمن وعُشاق الحرب والدمار في الجزاء، ولذلك قال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾(الشورى:٤٠)، وقال: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۞ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾(الفتح:٢٢-٢٣). فسنة الله تعالى في الظواهر الاجتماعية والتاريخية، هي طريقة حكمته في الجمع بين الأمور المتماثلة والتفريق بين الأمور المختلفة، ولذلك فإن نصرة أهل الإيمان تابعة للإيمان، ومتى انحرف عنه المسلمون فلا نصرة لهم. وملخص هذا المعنى جاء في قوله تعالى: ﴿منِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾(الإسراء:١٥).

الذي ينعم النظر في رسائل النور، يجد أن هذه المعاني الثلاثة للعدالة منثورة في ثناياها، ولكن يستخدمها النورسي بمفهومين، عدالة بمفهوم "الشريعة الكونية" وأخرى بمفهوم "الشريعة الدينية"، أي ثمة عدالة كونية وأخرى شرعية.

العدالة الكونية

إن من أهم الخصائص المنهجية للخطاب النورسي، هي تأسيس القواعد المطردة ثم بناء الفروع عليها. ولذلك فهو يعمد إلى وضع الأسس الكلية لمفهوم "العدالة" التي يراها مقصدًا جوهريًا من مقاصد القرآن، من خلال ربطها بفكرة السنن الكونية التي يسيّر الله بها الوجود؛ إذ يرى النورسي أن التوازن الكوني رمز للعدالة الإلهية فيقول: "إن العدالة العامة الجارية في الكون، النابعة من التجلي الأعظم لاسم "العدل"، إنما تدير موازنة عموم الأشياء وتأمر البشرية بإقامة العدل". الأمر الصادر بإقامة العدل هنا ليس أمرًا "لفظيًا" في نظر النورسي، وإنما نظام "معنوي" يتجلى من خلال دقة الحركة الكونية، ولذلك فإن "هذا الكون قصْر بديع يضم مدينة واسعة تتداولها عوامل التخريب والتعمير، وفي تلك المدينة مملكة واسعة تغلي باستمرار من شدة مظاهر الحرب والهجرة، وبين جوانح تلك المملكة عالم عظيم يسبَح كل حين في خضم الموت والحياة. ولكن على الرغم من كل مظاهر الاضطراب، فإن موازنةً عامة وميزانًا حساسًا، وعملية وزنٍ دقيق تسيطر في كل جوانب القصر ونواحي المدينة، وتسود في كل أرجاء المملكة وأطراف العالم، وتهيمن عليها هيمنة، بحيث تدل بداهة أن

ما يحدث ضمن هذه الموجودات التي لا يحصرها العدّ من تحولات، وما يلجُ فيها وما يخرج منها، لا يمكن أن يكون إلاّ بعملية وزنٍ وكَيْلٍ، وميزان مَن يرى أنحاء الوجود كلها في آن واحد، ومن تجري الموجوداتُ جميعُها أمامَ نظر مراقبته في كل حين، ذلكم الواحد الأحد سبحانه".

أما معنى العدالة الكونية فهي العدالة الإلهية المحضة التي تجمع بين المعنيين؛ الثاني والثالث، أعني التوازن والجزاء بالمثل. وهي بذلك تعتبر سنة إلهية، من أهم خصائصها الإطلاق والعموم والشمول. ويعرض النورسي تجليات ومظاهر هذا النوع من العدالة بقوله: "وترى العدالة المطلقة تضع كل عضو من الكائن الحي في موضعه اللائق به، وتنسقه بموازين دقيقة حساسة، ابتداءًا من ميكروب صغير إلى كركدن ضخم، ومن نحل ضعيف إلى نسر مهيب، ومن زهرة لطيفة إلى ربيع زاهٍ بملايين من الأزهار، وتراها تمنح كل عضو تناسقًا لا عبث فيه، وموازنة لا نقص فيها، وانتظامًا لا ترى فيه إلا الإبداع. كل ذلك ضمن جمال زاهر وحسن باهر، حتى تغدو المخلوقات نماذج مجسمة للإبداع والإتقان والجمال، فضلًا عن أنها تهب لكل ذي حياة حق الحياة فتيسر له سبل الحياة، وتنصب له موازين عدالة فائقة، فجزاء الحسنة حسنة مثلها، وجزاء السيئة سيئة مثلها".

هذا النص يبيّن أن العدالة الكونية تتجلى من خلال صورتين الأولى بصورة "نظام" في حركة الموجودات، والثانية بصورة "جزاء" لأفعال العباد الاختيارية وهو لا يتحقق كاملة إلا في الآخرة. والفرق بين النوعين ليس في الخصائص وإنما في مجال العمل، لذلك يقول النورسي: "نعم، إن العدالة شقان أحدهما إيجابي والآخر سلبي؛ أما الإيجابي فهو إعطاء كل ذي حق حقه. فهذا القسم من العدالة محيط وشامل لكل ما في هذه الدنيا لدرجة البداهة. فكما أثبتنا في الحقيقة الثالثة، بأن ما يطلبه كل شيء وما هو ضروري لوجوده وإدامة حياته التي يطلبها بلسان استعداده وبلغة حاجاته الفطرية وبلسان اضطراره من الفاطر ذي الجلال، يأتيه بميزان خاص دقيق وبمعايير ومقاييس معينة، أي إن هذا القسم من العدالة ظاهر ظهور الوجود والحياة. أما القسم السلبي فهو تأديب غير المحقين، أي إحقاق الحق بإنزال الجزاء والعذاب عليهم. فهذا القسم وإن كان لا يظهر بجلاء في هذه الدنيا، إلا أن هنالك إشارات وأمارات تدل على هذه الحقيقة. خذ مثلًا سوطَ العذاب وصفعات التأديب التي نزلت بقوم عاد وثمود، بل بالأقوام المتمردة في عصرنا هذا، مما يظهر للحدس القطعي هيمنة العدالة السامية وسيادتها".

إن عاقبة تمرد الإنسان بتصرفاته غير الحكيمة على العدالة الإلهية المتمثلة في "التوازن الكوني"، هي الكوارث البيئية وأضرارها البالغة التي تعم البشرية كما هو ظاهر في هذا العصر. أما الجزاء العادل بحق هذه التصرفات المعوجة نفسها "القسم السلبي"، فيتجلى كاملًا في يوم الجمع الأكبر، وإن كانت صفعات التأديب قد تنزل في هذه الدنيا. وهذا يعني أن جزاء انتهاك السنن الكونية عاجل، أما السنن الشرعية فبرحمة الله ﷻ يستوفى جزاؤها في الآخرة. فالعدالة الكونية في رسائل النور، إما عدالة "نظام" في الموجودات، أو عدالة "جزاء" للعباد، وهذه الأخيرة ينبثق منها مفهوم العدالة الشرعية التي جاء بها المرسلون.

العدالة الشرعية

إن العدالة الشرعية هي التي يشير إليها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥)، وهي ترتبط بالعدالة الكونية من حيث أصولها السماوية المتمثلة في شرائع الدين وتختص بالمجتمع البشري، لذلك أسند أمر تنفيذها بخلاف العدالة الكونية إلى الإنسان: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(الحديد:٢٥).

تأتي العدالة الشرعية بالمفهوم الأول للعدالة -أعني المساواة في التعامل- وهي عدالة نسبية تجمع بين العدالة القانونية والاجتماعية، أي تحري الحق بحسب القدرة

إن العدالة حكمة إلهية، بها يتحقق مقتضى سنن الكون في الوجود لتجري نحو غايتها جميعُ الكائنات، وهي قيمة الإنسانية، بها يسود منهج الحق ويتحقق مقتضى سنن الشرع في المجتمعات، وهي غاية أصلية للشرائع السماوية التي جاءت قاطبة لتحقق العدالة في الأرض، لتكون البشرية بسائر أجناسها وأعراقها وثقافاتها، أمام ميزان العدل والإنصاف.

حراء

البشـرية، لتحقيق العدل بين الناس وفق أوامر الشـرع وإعطاء كل ذي حـق حقـه، ولذلك قـال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُـرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَـانِ﴾(النحل:٩٠)، وقـال: ﴿فَمَنِ اعْتَـدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْـهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾(البقرة:١٩٤)، وهذا هو العدل، أي المسـاواة فـي التعامـل؛ إنْ خيرًا فخير وإن شـرًا فشـر. ولكن القـرآن يعلمنـا أن العفـو هـو الأفضـل: ﴿وَالْكَاظِمِيـنَ الْغَيْظَ وَالْعَافِيـنَ عَـنِ النَّـاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(آل عمران:١٣٤)، والإحسان أن يُقابل الخير بأكثر منه والشر بأقل منه.

فالعدالة الشرعية هي الاعتدال على صراط الحق وتحري الوسط من الأمور بين طرفي الإفراط والتفريط: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَـى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُـوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(المائدة:٨). فالعدالة بهذا المعنى سبب للطمأنينة وراحة البال، لأن الذي يعدل بين النـاس، يكسـب ودهم ويأمـن غدرهم، فيعم الأمن والسـلام والتعاون بين الناس فيكثر الإنتاج وتعم الخيرات.

إن فلسـفة العدالة الشـرعية عند النورسـي قائمة على هذه "الوسطية"، وهي خلاصة لكل الخصال الحميدة في الإنسان؛ الحكمـة والعفة والشـجاعة، وهـي أوسـاطٌ للمراتب الثلاث لقوى الإنسان: القوة الشهوية البهيمية الجاذبة للمنافع، والقوة الغضبية السَبُعية الدافعة للمضرات والمخرِّبات، والقوة العقلية الملكيـة المميـزة بيـن النفع والضر. وحقيقة ذلـك هي أن الله تعالى بحكمته المقتضية لتَكمُّل البشر بسر المسابقة، لم يحدِّد بالفطرة تلك القوى كما حدد قوى سائر الحيوانات، وإن حدَّدها بالشـريعة لأنهـا تنهى عن الإفـراط والتفريط وتأمر بالوسـط. وبعـدم التحديد الفطري يحصل مراتب ثلاث: مرتبة النقصان وهـي التفريط، والزيادة وهي الإفراط، والوسـط وهي العدل.

والعدالـة الشـرعية عنـد النورسـي يمكن النظـر إليها من جانبيـن: عدالة حقيقية (محضة) وأخرى نسـبية (إضافية). أما العدالة المحضة فهي الأخذ بالعزائم الشرعية في تحري الحق، مثـل تلك التي تقرر ألا يهدر دم بريء، ولا تزهق روحه حتى لـو كان في ذلك حياة البشـرية جمعـاء، لأن الكل والجزء في نظر العدالة سـواء. أما العدالة الإضافية فهي الأخذ بالرخص الشـرعية في تحري الحق، مثـل التضحية بأحد الجنود لإنقاذ الجيـش بأسـره من الهـلاك. والفرق الجوهـري بينهما هو أن العدالة النسـبية يمكن إسـاءة اسـتخدامها من قبل المفسـدين بذرائع مختلفة.

إن هـذا المفهـوم للعدالـة عنـد النورسـي يبيّن علـو مقام الإنسـان بين الكائنـات، إذ "لم يحدِّد الله تعالـى بالفطرة تلك القـوى كما حـدد قوى سـائر الحيوانات". ويقوّض الأسـس الفلسفية لفكرة "العدالة" في الحضارة المعاصرة، من حيث إن العدالة المطلقة في السـماء هي الأساس والقاعدة للعدالة في الأرض عند النورسـي، لأن "ملكة تعديل الأخلاق الموهومة -في الفكـر الوضعي- لا تكفي للمحافظة على القوى الثلاثة في الحكمة والعفة والشجاعة. لذا فالإنسان بالضرورة محتاج إلـى نبي يمسـك بميزان العدالـة الإلهية النافـذة والمؤثرة في الوجدان والطبائع".

تُفهَـم العدالـة فـي رسـائل النـور بهذيـن الاعتبارين، أي المفهوم الكوني والشـرعي للعدالة، حيث إن الإنسـان مأمور -بالفطرة والشرع- بإقامة العدل في المجتمع. ومن هنا تظهر أهمية الدعوة لجعل سـنة العدالة الإلهية أساسًا ومنبرًا لإيجاد تـراث بشـري مشـترك، لأن مـن النـاس من لا يؤمـن ببعض الشـرائع ولكنه ملزم بإقامة العدل وفق الشريعة الكونية. وهذا يعكـس مـدى بعد النظر الـذي يتمتع به مؤلف رسـائل النور. وغـرس هذا المفهوم "للعدالة" فـي النفوس لا يحفظ التوزان الاجتماعـي والبيئـي فحسـب، وإنما يمنـع الظلـم والتطرف الفكري أيضًا. ■

(*) أستاذ مساعد بكلية العلوم، الجامعة الإسلامية العالمية / ماليزيا.

المصادر

(١) اللمعات، لبديع الزمان سـعيد النورسـي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٢) الشعاعات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٣) الكلمات، لبديع الزمان سـعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٤) إشارات الإعجاز، لبديع الزمان سعيد النورسي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٥) الملاحق، لبديع الزمان سـعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٦) صيقل الإسـلام، لبديع الزمان سعيد النورسـي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة.
(٧) الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، دار الفكر، بيروت.
(٨) المفردات في غريب القرآن، لراغب الأصفهاني، دار المعرفة، بيروت.
(٩) مجمـوع الفتاوي، لأحمد بن عبـد الحليم، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم، المملكة العربية السعودية.

علوم

أ.د. زغلول النجار*

رفع السماء بغير عمد

ت

تشير الدراسات الكونية إلى وجود قوى مستترة في اللبنات الأولية للمادة، وفي كل من الذرات والجزيئات، وفي كافة أجرام السماء، تحكم بناء الكون وتمسك بأطرافه إلى أن يشاء الله تعالى فيدمره ويعيد خلق غيره من جديد.

ومن القوى التي تَعرَّف عليها العلماء في كل من الأرض والسماء، أربع صور يعتقد بأنها أوجه متعددة لقوة عظمى واحدة، تسري في مختلف جنبات الكون لتربطه برباط وثيق وإلا لانفرط عقده. وهذه القوى هي كالتالي:

١- القوة النووية الشديدة:

وهي القوة التي تقوم بربط الجزيئات الأولية للمادة في داخل نواة الذرة برباط متين من مثل البروتونات، والنيوترونات ولبناتهما الأولية المسماة بال"كواركات" (Quarks) بأنواعها المختلفة وأضدادها (Anti-Quarks)، كما تقوم بدمج والتحام نوى الذرات مع بعضها البعض في عمليات الاندماج النووي (Nuclearfusion) التي تتم في داخل النجوم كما تتم في العديد من التجارب المختبرية. وهي أشد أنواع القوى الطبيعية المعروفة لنا في الجزء المدرك من الكون، ولذا تُعرَف باسم "القوة الشديدة". ولكن هذه الشدة البالغة في داخل نواة الذرة، تتضاءل عبر المسافات الأكبر، ولذلك يكاد دورها يكون محصورًا في داخل نوى الذرات وبين تلك النوى ومثيلاتها. وهذه القوى تُحمَل على جُسَيْمات غير مرئية تسمى بـ"اللاحمة" أو "جليون" (Gluon) لم تُكتشف إلا في أواخر السبعينيات من القرن العشرين. وفكرة القنبلة النووية قائمة على إطلاق هذه القوة التي تربط بين لبنات نواة الذرة. كما أن هذه القوة لازمة لبناء الكون، لأنها لو انعدمت لعاد الكون إلى حالته الأولى -لحظة الانفجار العظيم- حين تحوّل الجِرم الابتدائي الأولي الذي نشأ عن انفجاره كلُّ الكون، إلى سحابة من اللبنات الأولية للمادة التي لا يربطها رابط، ومن ثم لا يمكنها بناء أي من أجرام السماء.

٢- القوة النووية الضعيفة:

وهي قوة ضعيفة وذات مدى ضعيف للغاية، لا يتعدى حدود الذرة. وتساوي ١٠-١٣ من شدة القوة النووية الشديدة، وتقوم بتنظيم عملية تفكّك وتحلل بعض الجسيمات الأولية للمادة في داخل الذرة، كما يحدث في تحلل العناصر المشعة، وعلى ذلك فهي تتحكم في عملية فناء العناصر، حيث إن لكل عنصر أجلًا مسمى. وتُحمَل هذه القوة على جسيمات إما سالبة أو عديمة الشحنة تسمى "البوزونات" (Bosons).

٣- القوة الكهربائية المغناطيسية:

وهي القوة التي تربط الذرات بعضها ببعض في داخل جزيئات المادة، مما يعطي للمواد المختلفة صفاتها الطبيعية والكيميائية. ولولا هذه القوة لكان الكون مليئًا بذرات العناصر فقط، ولمَا كانت هناك جزيئات أو مركبات، ومن ثم ما كانت هناك حياة على الإطلاق.

وهذه القوة هي التي تؤدي إلى حدوث الإشعاع الكهرومغناطيسي على هيئة فوتونات الضوء أو ما يعرف بـ"الكم الضوئي" (Photon Photon Quantum). وتنطلق الفوتونات بسرعة الضوء لتؤثر في جميع الجسيمات التي تحمل شحنات كهربائية، ومن ثم فهي تؤثر في جميع التفاعلات الكيميائية وفي العديد من العمليات الفيزيائية، وتبلغ قوتها ١/١٣٧ من القوة النووية الشديدة.

٤- قوة الجاذبية:

وهي على المدى القصير، تعتبر أضعف القوى المعروفة لنا، وتساوي ١٠-٣٩ من القوة النووية الشديدة. ولكن على المدى الطويل تصبح القوة العظمى في الكون نظرًا لطبيعتها التراكمية، فتمسك بكافة أجرام السماء، وبمختلف تجمعاتها. ولولا هذا الرباط الحاكم الذي أودعه الله ﷻ في الأرض وفي أجرام السماء، ما كانت الأرض ولا كانت السماء، ولو زال هذا الرباط لانفرط عقد الكون وانهارت مكوناته.

ولا يزال أهل العلم يبحثون عن موجات الجاذبية المنتشرة في أرجاء الكون كله، منطلقة بسرعة الضوء دون أن تُرى. ويُفترض وجود هذه القوة على هيئة جسيمات خاصة في داخل الذرة لم تكتشف بعدُ، يطلق عليها اسم "الجسيم الجاذب" أو "الجرافيتون" (Graviton). وعلى ذلك فإن الجاذبية هي أربطة الكون. والجاذبية مرتبطة بكتل الأجرام وبمواقعها بالنسبة لبعضها البعض. فكلما تقاربت أجرام السماء وزادت كتلها، زادت قوى الجذب بينها، والعكس صحيح. ولذلك يبدو أثر الجاذبية أوضح ما يكون بين أجرام السماء، التي يمسك الأكبر فيها بالأصغر بواسطة قوى الجاذبية. ومع دوران الأجرام حول نفسها، تنشأ القوة الطاردة (النابذة) المركزية التي تدفع بالأجرام الصغيرة بعيدًا عن الأجرام الأكبر التي تجذبها حتى تتساوى القوتان المتضادتان: قوة الجذب إلى الداخل، وقوة الطرد إلى الخارج. فتتحدّد بذلك مدارات كافة أجرام السماء التي يسبح فيها كل جرم سماوي دون أدنى تعارض أو اصطدام.

هذه القوى الأربع، هي الدعائم الخفية التي يقوم عليها بناء السماوات والأرض، وقد أدركها العلماء من خلال آثارها الظاهرة والخفية في كل أشياء الكون المدركة.

توحيد القوى المعروفة في الكون المدرك

كما تم توحيد قوتَي الكهرباء والمغناطيسية في شكل قوة واحدة هي القوة الكهرومغناطيسية، يحاول العلماء جمع تلك القوة مع القوة النووية الضعيفة باسم "القوة الكهربائية الضعيفة" (The Electroweak Force)، حيث لا يمكن فصل هاتين القوتين في درجات الحرارة العليا التي بدأ بها الكون. كذلك يحاول العلماء جمع القوة الكهربائية الضعيفة والقوة النووية الشديدة في قوة واحدة، وذلك في عدد من النظريات التي تعرف باسم "نظريات المجال الواحد" أو "النظريات الموحدة الكبرى" (The Grand Unified Theory)، ثم جمع كل ذلك مع قوة الجاذبية فيما يسمى باسم "الجاذبية العظمى" (Supergravity) التي يعتقد العلماء، بأنها كانت القوة الوحيدة السائدة في درجات الحرارة العليا عند بدء خلق الكون، ثم تمايزت إلى القوى الأربع المعروفة لنا اليوم، والتي ينظر إليها

> **إن الجاذبية العامة هي الرباط الحقيقي لتلك الكتل. وهذه القوة الخفية (غير المرئية) تمثل النسيج الحقيقي الذي يربط كافة أجزاء الكون، كما هو الحال بين الأرض والسماء، وهي القوة الرافعة للسماوات بإذن الله بغير عمد مرئية.**

على أنها أوجه أربعة لتلك القوة الكونية الواحدة التي تشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه. فالكون يبدو كنسيج شديد التلاحم والترابط، ورباطه هذه القوة العظمى الواحدة التي تنتشر في كافة أرجائه، وفي جميع مكوناته وأجزائه وجزيئاته. وهذه القوة الواحدة تظهر لنا في هيئة العديد من صور الطاقة. والطاقة هي الوحدة الأساسية في الكون، والمادة مظهر من مظاهرها، وهي من غير الطاقة لا وجود لها. فالكون عبارة عن المادة والطاقة ينتشران في كل من المكان والزمان، بنسب وتركيزات متفاوتة، فينتج عنها ذلك النسيج المحكم المحبوك في كل جزئية من جزئياته.

الجاذبية العامة

من الثوابت العلمية، أن الجاذبية العامة هي سنة من سنن الله ﷻ في الكون، أودعها ربنا تبارك وتعالى كافةَ أجزاء الكون، ليربط تلك الأجزاء بها. وينص قانون هذه السنة الكونية، بأن قوة التجاذب بين أي كتلتين في الوجود، تتناسب تناسبًا طرديًا مع حاصل ضرب كتلتيهما، وعكسيًا مع مربع المسافة الفاصلة بينهما. ومعنى ذلك أن قوة الجاذبية تزداد بازدياد كلٍّ من الكتلتين المتجاذبتين، وتنقص بنقصهما، بينما تزداد هذه القوة بنقص المسافة الفاصلة بين الكتلتين، وتتناقص بتزايدها. ولما كان لأغلب أجرام السماء كتل مذهلة في ضخامتها، فإن الجاذبية العامة هي الرباط الحقيقي لتلك الكتل، على الرغم من ضخامة المسافات الفاصلة بينها. وهذه القوة الخفية (غير المرئية) تمثل النسيج الحقيقي الذي يربط كافة أجزاء الكون، كما هو الحال بين الأرض والسماء، وهي القوة الرافعة للسماوات بإذن الله بغير عمد مرئية.

وهي نفس القوة التي تحكم تكوُّر الأرض، وتكوُّر كافة أجرام السماء، وتكوُّر الكون كله، كما تحكم عملية تخلّق النجوم بتكدس أجزاءٍ من الدخان الكوني على بعضها البعض، بكتلات محسوبة بدقة فائقة، وتخلّق كافة أجرام السماء الأخرى، كما تحكم دوران الأجرام السماوية كلٌّ حول محوره، وتحكم جَرْيَهُ في مداره، بل في أكثر من مدار واحد له. وهذه المدارات العديدة، لا تصطدم فيها أجرام السماء رغم تداخلاتها وتعارضاتها الكثيرة، ويبقى الجِرم السماوي في مداره المحدد، بتعادل دقيق بين كلٍّ من قوى الجذب إلى الداخل بفعل الجاذبية، وبين قوى الطرد إلى الخارج بفعل القوة الطاردة (النابذة) المركزية.

وقوة الجاذبية العامة تعمل على تحدّب الكون أي تكوّره، وتُجبِر كافة صور المادة والطاقة على التحرك في السماء في خطوط منحنية (العروج)، وتمسك بالأغلفة الغازية والمائية والحياتية للأرض، وتحدد سرعة الإفلات من سطحها. وبتحديد تلك السرعة، يمكن إطلاق كل من الصواريخ والأقمار الصناعية.

الجاذبية الكمية

تُجمِع كافة القوانين المتعلقة بالجاذبية، مع الأخذ في الحسبان جميع التأثيرات الكمية على اعتبار أن إحداثيات الكون تتبع نموذجًا مشابهًا للإحداثيات الأرضية، وأن أبعاد الكون تتبع نموذجًا مشابهًا للأرض بأبعادها الثلاثة، بالإضافة إلى كلٍّ من الزمان والمكان كبُعد رابع. وعلى الرغم من كونها القوة السائدة في الكون -بإذن الله- فإنها لا تزال سرا من أسرار الكون. وكل النظريات التي وُضعت من أجل تفسيرها، قد وقفت دون ذلك، لعجزها عن تفسير كيفية نشأة هذه القوة وكيفية عملها، وإن كانت هناك فروض تنادي بأن جاذبية الأرض ناتجة عن دورانها حول محورها، وأن مجالها المغناطيسي ناتج عن دوران لب الأرض السائل، والذي يتكون -أساسًا- من الحديد والنيكل المنصهرين حول لبها الصلب، والذي له نفس التركيب الكيميائي تقريبًا، وكذلك الحال بالنسبة لبقية أجرام السماء.

موجات الجاذبية

منذ العقدين الأولين من القرن العشرين، تنادي العلماء بوجود

موجات للجاذبية من الإشعاع التجاذبي تسري في كافة أجزاء الكـون؛ وذلـك على أسـاس أنه بتحرك جسـيمات مشـحونة بالكهرباء مثل الإليكترونات والبروتونات الموجودة في ذرات العناصر والمركبات، فإن هذه الجسيمات تكون مصحوبة في حركتها بإشـعاعات من الموجات الكهرومغناطيسـية. وقياسًا على ذلك فإن الجسيمات غير المشحونة -مثل النيوترونات- تكون مصحوبة في حركتها بموجات الجاذبية. ويعكف علماء الفيزيـاء اليوم على محاولة قياس تلك الأمواج، والبحث عن حاملها من جسـيمات أولية في بناء المادة يحتمل وجوده في داخل ذرات العناصر والمركبات، واقترحوا له اسم "الجاذب" أو "الجرافيتون"، وتوقعوا أنه يتحرك بسـرعة الضوء. وانطلاقًا من ذلك، تصوروا أن موجات الجاذبية تسبح في الكون، لتربط كافـة أجزائه بربـاط وثيق من نواة الذرة إلـى المجرة العظمى وتجمعاتهـا إلى كل الكون، وأن هذه الموجات التجاذبية هي مـن السـنن الأولـى التي أودعهـا الله تعالى مـادة الكون وكل المكان والزمان.

وهنـا يجب التفرقة بين قـوة الجاذبية، وموجات الجاذبية، فبينمـا الأولـى تمثّل قوة الجـذب للمادة الداخلـة في تركيب جسم ما حين تتبادل الجذب مع جسم آخر، فإن الثانية هي أثرٌ لقوة الجاذبية. وقد أشـارت نظرية النسـبية العامة إلى موجات الجاذبيـة الكونيـة، على أنهـا رابط بين المـكان والزمان على هيئـة موجات تؤثر فـي حقول الجاذبية في الكـون، كما تؤثر علـى الأجرام السـماوية التـي تقابلها. وقـد بُذلت محاولات كثيـرة لاستكشـاف موجـات الجاذبية القادمة إلينـا من خارج مجموعتنا الشمسية، ولكنها لم تكلل بعد بالنجاح.

والجاذبيـة وموجاتها التي قامت بها السـماوات والأرض منذ بدء خلقهما، سـتكون سـببًا في هدم هذا البناء عندما يأذن الله ﷻ بتوقف عملية توسـع الكون، فتبـدأ الجاذبية وموجاتها فـي العمل علـى انكماش الكون، وإعادة جمـع كافة مكوناته علـى هيئـة جـرم واحد شـبيه بالجـرم الابتدائي الـذي بدأ به خلـق الكـون، وسـبحان القائل: ﴿يَـوْمَ نَطْـوِي السَّـمَاءَ كَطَيِّ السِّـجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَـا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْـدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾(الأنبياء:١٠٤).

نظرية الخيوط العظمى وتماسك الكون

فـي محاولـةٍ لجمـع القـوى الأربـع المعروفـة فـي الكـون (القـوة النوويـة الشـديدة، والقـوة النوويـة الضعيفـة، والقوة الكهرومغناطيسـية، وقـوة الجاذبية) في صـورة واحدة للقوة، اقترح علماء الفيزياء ما يعرف باسم "نظرية الخيوط العظمى" (The Theory Of Superstrings)، والتـي تفتـرض أن الوحـدات البانية للبنات الأولية للمادة من مثل الكواركات والفوتونات، والإليكترونـات وغيرهـا، تتكون من خيـوط طولية في حدود ١٠-٣٥ مـن المتـر، تلتـف حـول ذواتهـا على هيئـة الزنبرك المتناهـي فـي ضآلـة الحجـم، فتبدو كما لـو كانـت نقاطًا أو جسـيمات وهـي ليسـت كذلـك. وتفيـد النظرية فـي التغلب على الصعوبات التي تواجهها الدراسـات النظرية في التعامل مـع مثل تلك الأبعاد شـديدة التضاؤل، حيـث تتضح الحاجة إلـى فيزيـاء كمية غيـر موجودة حاليًـا. ويمكـن تمثيل حركة الجسـيمات في هذه الحالـة بموجات تتحـرك بطول الخيط، كذلـك يمكن تمثيل انشـطار تلك الجسـيمات واندماجها مع بعضها البعض، بانقسام تلك الخيوط والتحامها.

وتقتـرح النظريـة وجودَ مادة خفيـة، يمكنها أن تتعامل مع المـادة العاديـة عبر الجاذبية، لتجعل من كل شـيء في الكون مـن نواة الذرة إلى المجرة العظمـى وتجمعاتها المختلفة إلى كل السماء.. بناء شديد الإحكام قوي الترابط. وقد تكون هذه المادة الخفية هي ما يسمى بـ"المادة الداكنة"، والتي يمكن أن تعوض الكتل الناقصة في حسابات الجزء المدرك من الكون، وقد تكون من القوى الرابطة له.

وتفسـر النظريـة جميـع العلاقـات المعروفة بيـن اللبنات الأوليـة للمادة، وبين كافة القوى المعروفة في الجزء المدرك من الكون. وتفترض النظرية أن اللبنات الأولية للمادة، ما هي إلا طـرق مختلفة لتذبذب تلك الخيوط العظمى في كون ذي أحد عشـر بُعدًا. ومن ثم إذا كانت النظرية النسبية قد تحدثت عن كون منحنٍ، أي منحنية فيه الأبعاد المكانية الثلاثة (الطول، العرض، الارتفاع) في بعد رابع هو الزمن، فإن نظرية الخيوط العظمى تتعامل مع كون ذي أحد عشر بُعدًا، ومنها سبعة أبعاد مطويـة علـى هيئة لفائف الخيوط العظمى لـم يتمكن العلماء بعدُ من إدراكها، فسـبحان القائل: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّـمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾(الرعد:٢). الله ﷻ قد أنزل هذه الحقيقة الكونية على خاتم أنبيائه ورسـله صلوات الله عليهم أجمعين من قبل أربعة عشـر قرنًا، ولا يمكن لعاقل أن ينسـبها إلى مصدر غير الله الخالق ﷻ. ■

(*) أسـتاذ علـوم الأرض ورئيـس لجنـة الإعجـاز العلمي بالمجلـس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.

د. رشيد كهوس*

لمسة الإيمان والتآخي

في العمارة الإسلامية

قال رسـول الله ﷺ: مثَل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثَل الجسـد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمَّى" (رواه مسلم). إن الرابطة القلبية الإيمانية بين المسلمين، هي من أهـم خصائـص العمـران الأخـوي، وبـدون هذه الرابطة القلبية يبقى الحديث عن العمران الأخوي حديثًا غير ذي معنى، وكلمة تلوكها الألسن الغافلة.

الرابطـة القلبية المقصـودة، تلك المشـار إليها فـي قولـه تعالـى في حـق الأنصـار ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ

﴿تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الحشر:٩).

ولو قال: "تبوؤا الدار" فقط، لكانوا كباقي المجتمعات التي تحكمها روابط مصلحية دنيوية محضة سرعان ما تتبخر وتذهب أدراج الرياح، لكن قال: ﴿تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ﴾، فهو تبوء ثنائي: تبوأوا الدار، وتبوأوا الإيمان. هكذا كان الأنصار ﷺ؛ وقوا شح أنفسهم وخرجوا من دهاليز نفوسهم المجبولة على الشح، إلى فضاء عبودية الله تعالى ومحبته، فنصروا النبي ﷺ وإخوانهم المهاجرين ﷺ، وآووهم وأنفقوا عليهم وأحبوهم... هذه هي الأخوة الصادقة الحقة التي أثنى عليها الله ﷻ، ودعانا إليها لبلوغ المرام.

التوازن الفريد بين الثنائيات

لقد جمع هذا العمران الأخوي بين الدنيا والآخرة، والثبات والتطور، والأرض والسماء، والفردية والجماعة، والعدل والإحسان، والوحي والوجود، وعالم الغيب وعالم الشهادة، والقدر والاختيار، والروح والمادة، والتربية والجهاد، والإيمان والعقل، وبين الظاهر والباطن، والدعوة والدولة، والوحدة والتنوع: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣)، فهي جماعات وشعوب، لكن يجمعها ويوحدها الإسلام. هذا إضافة إلى الشمولية التي تميز بها هذا العمران، على عكس الحضارة الغربية والحضارات السابقة.

فالعمران الأخوي، عمران شمولي وواقعي وإنساني وعالمي، يحمل رسالة الإسلام لينشرها في العالمين، لا يفرّق بين أسود وأبيض، ولا بين عجمي وعربي، ولا بين السيد والعبد، ولا بين المرأة والرجل... الكل سواسية، وصدره مفتوح لكل من أراد الانضواء تحت لواء الإسلام أيًّا كان موقعه في الزمن والمكان. ومن خصائص العمران الأخوي، كونه إيجابيًا يبني ولا يهدم، يصلح ولا يفسد، يسعى لتحقيق الخلافة الكاملة في الأرض، وتطهير الأرض من كل ما يصد عن الله ﷻ. عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "إنْ قامت الساعة وبيَد أحدكم فسيلةٌ فإنْ استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فلْيفعل" (رواه أحمد).

الأصالة والتجديد

العمران الأخوي يجمع بين الأصالة والتجديد، قادر على الاجتهاد على نور الإسلام، قادر على حماية ذاته من التفكك والانحلال، قادر على وضع كل القيم والخبرات لدى الحضارات الأخرى في محك الإسلام، للاستفادة من سليمها الموافق لمبادئ الإسلام، والرمي بالباقي في مخازن الأفكار الضالة. يقول الدكتور عماد الدين خليل: "إنه منذ اللحظات الأولى، أخذ الإسلام على عاتقه مهمة تكوين جماعة مؤمنة "متحضرة"، تعرف كيف تحقق التقابل الفعال بين أصالة الذات العقائدية وبين الانفتاح على معطيات الأمم والشعوب. (...) وفي فترة قصيرة تمكّن الإسلام من أن يحوّل العرب إلى أمة "متحضرة"، خرجت إلى أطراف الأرض تحمل علمها الجديد ورؤيتها المتوحدة، لكي ترسم للعالمين مصيرًا جديدًا".

إنه عمران أخوي أصيل، قادر على مواكبة المستجدات والاستجابة للتحديات، متوازن وشامل وجامع وواقعي وبنّاء، يسعى لإخراج الناس من ظلام الأوثان إلى نور الإيمان، ومن عبادة الخلْق إلى عبادة الخالق، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام، ولو لم يكن للإسلام إلا هذه المزية لكفاه فخرًا وشرفًا. تلك إذن هي شرائط إحلال العمران الأخوي وبدايته. وما دمنا قد تحدثنا عن الطريق إلى العمران، فإنَّا نتم كلامنا في الحديث عن دعائمه وأعمدته.

دعائم العمران الأخوي

١- العقيدة الصحيحة: عقيدة المؤمن هي وطنه، وهي قومه، وهي أهله، وهي كل شيء، وعليها يجتمع البشر. إنها أهم دعامة للعمران الأخوي؛ العقيدة السليمة المستمدة من وحي السماء. وبهذا يتجاوز كافة الحضارات الغارقة في أوحال الماديات، والتي لا ترى إلا ما تحت قدميها. إن هذا العمران يعبر عن ذلك اللقاء بين السماء والأرض، بين الدنيا والآخرة، بين الدين والسياسة... وعلى ضوء ذلك يخطط لعمله وفق ما تحدده العقيدة في دائرتها لا خارجها.

وإن أهم ما تميز به هذا العمران، أنه قام بكل ما قام به من عمارة الأرض، وهو يستظل بظل العقيدة الصحيحة، بل ينطلق من منطلقها ويحقق مقتضياتها.

فمنذ لحظات الفجر الأولى، كانت العقيدة بالنسبة للإنسان المسلم والجماعة المسلمة، بمثابة الدافع والهدف، فهي تحركهم من الداخل بعطائها الدائم ومطالبها المستمرة،

وهي تناديهم من الخارج ليتحركوا إلى الأهداف الكبيرة، التي جاء بها هذا الدين لكي يجعل العالم يتحقق بها فيكون عالمًا جديرًا بالإنسان الذي كرمه الله ﷻ.

فالأساس الأول لهذا العمران هو التوحيد الذي جاء به الإسلام ليعيد إليه صفاءه الأول، وليأخذ بيد الناس إلى ربهم، وليخرجهم من ظلمات الشركيات وكهوف العقائد المنحرفة الضالة، إلى نور التوحيد والعقيدة السليمة، ليعبد الناس ربهم الذي خلقهم والذين من قبلهم ولا يجعلوا معه أندادًا، يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾(الإخلاص:١-٤). إنها أروع صورة للعقيدة الإسلامية الصحيحة التي بها اهتدى الناس إلى سبيل الرشاد، وبها تبوأوا المكانة الرفيعة في العالم. إنها الطاقة الخالدة لانطلاق العمران.

فإنه ما من خطوة في تاريخ البشرية حررت العقل وكرّمته، ووضعته في موقعه الصحيح كهذه الخطوة؛ تحويل التوجه الإنساني من التعدد إلى التوحيد، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن عشق الأحجار والأصنام والتماثيل والأوثان إلى محبة الحق الذي لا تلمسه الأيدي ولا تراه العيون.

إن العقيدة روح العمران، وما أصاب الأمة الإسلامية اليوم من تخلف وصَغَار، ومن نكبة قاصمة لظهرها، وتتابُع الخطوب عليها، يرجع كل ذلك إلى غيبة تلك الروح من جسد الأمة، فتضعضع ذلك الكيان، وأصبحت الأمة خائرة جامدة متوعكة مريضة. إن الإرادة القوية التي تهدف إلى البناء، هي التي خارت وضعفت بسبب الداء العضال الذي أصابها "داء الأمم" الذي أكل أحشاء الأمة ونخر كيانها.

لقد كان مؤرخنا الكبير ابن خلدون -رحمه الله- حكيمًا لما جعل الشؤون السياسية، والاقتصادية، والعلم في دولة مسلمة تبعًا للشأن الديني وجعل العقيدة الحقيقة الأولى لهذا الدين الحنيف. ففي ضوئها درس ما حلّ بالدولة من مصائب وفساد، وركود العمران، وانتقاص الصنائع واختلال طرائق العلم، وتلاشي ملكات العلوم وغير ذلك... فوجد أن كل هذه الأدواء والأمراض، راجعة إلى اختلال العقيدة دعامةِ العمران البشري والدولة القائمة.

السبب الرئيس الذي جعل الأمة تصل إلى حضيض التخلف والتأخر عن الركب، هو "داء الأمم"، فعندما فرغت أفئدة أبنائها من المحبة لله ولرسوله والمؤمنين، أصبحت تلك القلوب تصفر فيها رياح الشحناء والحقد والبغضاء. ولن تقوم لنا قائمة حتى نرجع إلى المنهاج النبوي، لنغير ما بأنفسنا حتى يغير الله ما بنا، يقول ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الرعد:١١).

فبمحبة الله ورسوله شفيت الأمة في بداية أمرها، وبه تشفى في وسط أمرها وآخره. فمهما التمس الناس الهدى في غير الإسلام، ومهما تفلسفوا عن القوميات ومعانيها... كل ذلك يتبخر ويذهب أدراج الرياح ما دامت الأمة تركن إلى الأهواء القاتلة، والنّعرات القبلية، والطموحات الشخصية، وما دام داء الأمم يضرب بخيله ورجله في أرضها. معين العلاجات كلها يكمن في الأخوة الصادقة والمحبة والمواطنة القلبية بين المؤمنين، وفي عودة الأمة إلى أصلها مرة أخرى، إلى أس العلاج.

٢- محبة الله ورسوله: المحبة عماد العمران، لولاها لما استقام البناء على وجه الأرض لحظات. إنها السبيل الذي يخرجنا من ذلك المستنقع الآسن، والدرك الهابط، والظلام البهيم... إنها السبيل الذي يعيدنا إلى ذلك العمران الأخوي الأول؛ محبة الله ورسوله ومحبة المومنين. ما بال الناس يرتكسون في الحمأة الوبيئة والعلاج بين أيديهم؟ إن المحبة هي العلاج المنسي في عالمنا الإسلامي المعاصر، يتسارع المسلمون إلى فجاج، وإلى جهات، وإلى أساليب ووسائل شتى، بحثًا عن العلاج والعلاج بين أيديهم وهم عنه تائهون.

تلك المحبة هي ترياق العمران، هي المفتاح الذي يقود الأمة إلى عمران أخوي. هي المفتاح الذي يدفع الإنسان إلى اقتحام العقبات الكؤودة من أجل البناء؛ بناء صرح العمران على أس القرآن وسنة النبي إمام أهل الإحسان ﷺ. إن البناء الذي ينسى هذا الأساس المتين، لا يمكن أن يحمي صاحبه من الأخطار الوافدة إليه بشكل من الأشكال، بل سرعان ما ينهار على أم رأسه. إذا انفك قلب الإنسان عن تاج المحبة العظيم، ما الذي يبقى له؟ لا شك أن قلبه يصبح مأوى ووكرًا لأفاعي الريب وسوء الظن، وذئاب الهوى والطمع.

إذن، فهذا العمران لا ينهض إلا على دعامة رئيسة واحدة، ألا وهي دعامة الحب. وإذا سلم أساسها وقامت صافية عن الشوائب والزغل، سَهُل البناء وقام صرح العمران. وكلما كانت المحبة شديدة كلما كان البناء شامخًا ومتينًا.

لو أن القلوب صفت وغُرس فيها مغرس المحبة، لجمع

الله شـملها ووحّد كلمتها، ولفجّر القوة من حيث لا تحتسب من كيانها. فما انتصر الإسلام بالفكر ولا الجدال، لكنه انتصر بالمحبة والطاعة لله ﷻ ولرسوله ﷺ وبتلك الروحانية الإيمانية العالية. فالإسـلام الفكري وحده لا يحقق شـيئًا، لا ينبت كلأ ولا يعطي ثمارًا، لأنه شجرة فوق الأرض لا جذور لها، سرعان مـا تعصـف بهـا الرياح العاتيـة وتهوي بها في مكان سـحيق.

٣- إقامة العدل: المقصود بالعدل، الاسـتقامة في حقوق الله ﷻ وفـي حقـوق عباده. يقـول ربنا تبارك وتعالـى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾(المائدة:٨). والقسط المذكـور في الآية هو "العدل"، والمقصود بـ"العدل" هو عدل الحكم وعدل القسمة. فالأول هو الفصل فيما يقع بين الأفراد من تشاجر وخصومات، والثاني هو المساواة بين أفراد المجتمع، وذلك بقطع دابر المترفين، وتقليم أظافر المسرفين والمبذّرين، وتسـوية الفساد الطبقي، والتكافل الاجتماعي من كفالة اليتيم والمسـكين والعاجزين، بالإضافة إلى توفير الشغل للقادرين.

أمـا إذا كان الظلم والسّـفاء محل العـدل والإنصاف، فلا شك أن مآل ذلك العمران إلى خراب، ويرحم الله العلامة ابن خلدون القائل في مقدمته: "الظلم مؤذن بخراب العمران".

وعلاوة على ذلك، فإن العدل دعامة لهذا العمران الأخوي وهـو أم المطالـب التي يقصد إليها الشـرع. هو صلب الدين، وبه بعث الله رسله وأنبياءه مبشرين ومنذرين.

وهنـا لابد من تنمية وتوفير حاجيـات الاقتصاد، للتصدي لضـرورات الإنتـاج والتصنيع، لأن المجتمع المسـلم محتاج إلـى حـد أدنى من الرفاهية المادية، ليضمـن بالمعاش الكريم الراحة الخلقية والروحية لرجاله ونسائه.

٤- التكافــل الاجتماعي: لقد فـرض الله تعالى حدًا أدنى مـن التكافل وهو الزكاة، وحض عليه، بل وشـدد في فرضيته وجعلهـا الركـن الثالـث للإسـلام، ومـا ذكـرت الصـلاة إلا وذكـرت معها الزكاة: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّـلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَـعَ الرَّاكِعِينَ﴾(البقـرة:٤٣)، وذلك راجـع لأهمية هذا الركن في التأليف الاجتماعي. وجاءت نصوص شـرعية كثيرة تبشر مَن قـام بهذه الفريضة، بطهارة النفس وفـوزه في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾(الأعلى:١٤).

والزكاة شرط المواطنة القلبية المذكورة في قوله ﷻ: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(التوبة:١١)، وأما وظيفتها الاجتماعية فهي مربوطة ربطا محكمًا بالوجه العبادي الإيماني.

فالمال مال الله ﷻ، والإنسـان مسـتخلف فيه وممتحن به. تُرى ماذا سـيفعل به؟ وفي ماذا ينفقه؟ وبأي نية ينفقه؟ أرشـد الله ﷻ الإنسـان إلـى البـذل من ماله في سـبيله حتى لا يكون هذا المال سـببا لخسرانه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾(المنافقون:٩).

فالزكاة فريضة من الله تعالى على كل مال -فصيح وصامت- حال عليه الحول وبلغ نصابه. هدفها إغناء المسـتحق لسـنته، لقـول فاروق الأمة، سـيدنا عمر بن الخطـاب ﷺ: إذا أعطيتم فاغنـوا" (رواه البيهقي)، ويعنـي: مـن الصدقة. إلـى جانب ذلك إغنـاء الفقراء والمسـاكين، وكل الأصنـاف الثمانية المذكورة فـي القرآن. وهنا قضية يجدر الحديث عنها، وهي أن علماءنا الأفاضل اجتهدوا في هذا العصر ووسّـعوا وعاء الزكاة، حتى يشـمل الثـروات المعدنيـة والبحريـة والفلاحيـة والصناعيـة والتجارية والمنتوجات الحيوانية، والمسـتغلات من عمارات ومصانـع، والنفـط، والعسـل... وحتـى لا يبقـى وعاؤها كما تركه من تقدم من سلفنا الصالح -رحمة الله عليهم- الذين لم يكونـوا يعرفون مثل هذه الأنواع مـن الثروات، قاصرين على الإنتاج الزراعي البدائي المنحصر في الأنعام والقمح والشعير.

أضف إلى ذلك أن تشريع الإنفاق كان قبل تشريع الزكاة، بـل جعـل الله تعالى الإنفاق من سـمات المتقيـن الواردة في أوائل سـورة البقـرة: ﴿الم ۞ ذَلِكَ الْكِتَـابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِيـنَ ۞ الَّذِيـنَ يُؤْمِنُـونَ بِالْغَيْـبِ وَيُقِيمُـونَ الصَّـلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(البقرة:٢-٣). وبالإضافة إلى ما سـبق ذكره من زكاة وصدقـة وحقوق أخـرى المتعلقة بالأموال، فإن الشـرع حث كذلك على البر والبذل.

فوجب إذن، أن ينبعث التطوع الإيماني من إرادة كل مسلم ومسـلمة، محبة لله ﷻ واحتسـابًا الأجر عليه. فكفالة المسـلم وصيانـة حرمتـه حيًّا وحفظ عهـده ميتًا، أن يكـون مكفولًا لا خامـلًا، أن يسـعى ليكـون منتجًا، ليكـون المعطي يحرث في دنياه لآخرته. وعلى هذه الأركان قام العمران الأخوي الأول، فـكان نموذجًا خالدًا في التاريخ. وما زالت أنواره تشـع على صفحاتـه، كمـا كان شـجرة راسـخة ذات جـذع عظيـم قوي تغالب الرياح المزمجرة. ■

(*) جامعة محمد الأول / المغرب.

أدب

نور أفشان كبال*

قبل الموت الموتُ

أ

"أيتها النفس الخائفة والهاربة من الموت، تنبهي! فالخوف نابع منكِ وفيكِ.. والخوف ليس من صورة الموت، بل من وجهكِ القبيح! فروحكِ شجرةٌ والموت أوراقها".

عندما نلقي نظرة متفحصة، نجد مولانا جلال الدين الرومي، في آثاره عمومًا وفي المثنوي خصوصًا، يقسم الموتَ إلى نوعين: موتٌ إرادي، وموتٌ طبيعي.

الموت الطبيعي

والموت الطبيعي -البيولوجي- الذي يشكل القسم الثاني عنده، وإن بدا لنا في نظرة سطحية أنه فناءُ الجسد وتلاشيه، فإنه لا يعني العدم. لأن الإنسان ليس كائنًا حيًّا مركبًا من جملة الموجودات المادية فقط، بل يحمل فوق ذلك روحًا خاصة به. ويكون بذلك كائنًا

ذا جانبيـن؛ جانـب مادي، وجانب روحـي. فالموت هو بداية المسـير نحو أصلِ كل الموجـودات، والموت ليس فراقًا ولا فنـاءً، بـل هو تعبير عن عودةِ كلِّ جـزء من الوجود إلى أصله واتصاله به.

يتنـاول مولانـا جلال الديـن موضوع البعـث "العودة إلى الأصل" بهذه العبارات مستندًا في ذلك إلى الآية الكريمة ﴿إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: "لو لم يكن فراقًا تَوَقُّفُنا في هذه الدنيا، مـا كان لنـا أن نقول، نحـن العائدون من جديـد، والواصلون إليـه. يقـال: عائـد وراجـع، لمن يبلـغ من جديد تلـك الديار وينجو من مُفْتَرَق الزمان ويبلغ الوحْدة".

الموت الإرادي

والنوع الثاني الذي يتناوله المثنوي، هو الموت الإرادي، وهو بهذا المعنى يشكل إحدى مراكز التَّنَبُّه في التصوف الإسلامي، معتمـدًا علـى مبدأ "موتوا قبـل أن تموتوا"، وهو مـا يعبّر عنه المثنـوي بقولـه: "موت البـدن بالرياضة هو الحيـاة، وتعذيب هـذا الجسـد يعني بلوغَ الـروح الخلودَ. فيا له من سـعيدٍ مَن مات قبل أن يموت، ونال عبقًا من أصل هذه العناقيد من هذا البسـتان". ثم يقول مولانا في المثنوي: "موتوا.. موتوا لتنالوا روحًـا خالـدة، وانقطعوا عن هذا التراب وتخلّصوا من حقول الأجساد لتلمسوا بأيديكم السماوات".

يريد مولانا جلال الدين الرومي في هذه الأبيات أن يقول: إن الحياة الحقيقية شـيء مختلف عـن الحياة التي يعرفها كل فرد منا بأنفاسـه التـي تدخل وتخرج. فالإنسـان الذي يقضي حياته في الطعام والشراب والرغبات الجسدية -في نظره- لا يعيش في الحقيقة حياةً إنسـانيةً. والمعرفة تعني قدرةَ الإنسان على أن يدير ظهرَه لهذه الرغبات التي تُحْدِق به من كل جانب وهو على قيد الحياة، لأن هذه المطالبَ والرغبات، تحمل في نفسها من الطاقة الكامنة، ما تجعلها عبئًا عليه وغمًّا، وهي لا تسـتطيع أن تشـكل خطرًا عند الأموات، لأنها في الأصل غيرُ موجـودة عندهـم. وفي هذه الحـال، ينبغي على الإنسـان أن يختـار موتًا إراديًّا ومجازيًا، ليتمكّن من الخلاص من همومها -أي الرغبات- وأثقالها.

وفي تأكيدٍ آخر، نجد المثنوي يسـلّط الأضواء على البيان أعـلاه فيقـول: "تطلبُ الموتَ وتشـتهيه كما يشـتهي الحليبَ الرضيـعُ، فلسـتَ أسـيرَ العلّـة والمرض. تبحث عـن الموت وتتمنـاه، لا تطلبـه هربًا من الآفـات والآلامِ، بل في كنزٍ دفينٍ تَـراه في ركنِ بيتـكَ المُنهدِم". ففي هذه الأبيات نرى أن رغبة المـوت فـي المثنـوي حالةُ شـوقٍ مثالية. فقدم مثاليـن اثنين تأكيـدًا لهذه الحالة من الشـوق: ميلُ الطفل وشـوقُه للحليب والرضاع، وحبُّ الغنى عند من يرى الكنز الدفين.

حقيقة الخوف من الموت

"أيتهـا النفس الخائفـة والهاربة من المـوت، تنبهي! فالخوف نابـع منـكِ وفيكِ.. والخوف ليس مـن صورة الموت، بل من وجهك القبيح! روحكِ شـجرةٌ والمـوت أوراقها.. وما يَنْبت من خير أو شر فمنكِ، وما كان في النفس مرغوبًا عنه أو فيه، فمنكِ وحدكِ يأتي".

بهـذه العبـارات، يحـاول المثنـوي أن يفصح عـن حقيقة الخـوف من الموت، فيشـبهه -أي الموت- بالمرآة. فالموت للأتقياء محبَّب وجميل، وللعاصين مكروه وقبيح. وما يخيف الإنسـانَ هو مـا يراه في المرآة من قبائحه وسـيئاته وليس هو المـوت بحدّ ذاتـه. ولذلك ينبغي علينا -ونحـن ندرك حقيقة المـوت- أن لا نتعلق بالدنيـا، وأن نجعل ختامَنا الذي لا مفرّ منه، حياةً عامرةً بالأعمال الصالحة الحسنة، وأن نستعدّ للحياة الأبدية فلا نُفضي إلى حضْرة المحبوب صِفْرَ اليدَين.

"سـتبقى فـي حالـة النَّزْع تُغالِـب الموتَ، ولـن تنجوَ قبل الموت، فَمُتْ إذًا حتى تفوز بالنجاة. كيف ترتقي سطحًا بسلّمٍ ذي مئـة درجـةٍ ينقصـك فيه درجتـان؟! أو تنال المـاء من بئرٍ عميقٍ ما لم يبلغْه الحبل ولو كان مئة ذراع؟! فكذلك السـفينة لا تغـرق ما لم تحْمـل حِمْلها الأخير الذي يفوق قدْرتَها! لقد طـال النَّزْع لأنكَ مـا زلتَ على قيد الحياة! يا شـمْعة الظلام! مُـتْ عندما يشـرق الصبـاح، ولكن ليس موتًا يـودي بك إلى القبر، بل موتًا يسمو بك إلى النور ويوصلك إلى الكمال. ففي موتٍ كهذا ينقلبُ الغمُّ فرحةً وسعادةً، كما لا يبقى للتراب أثرٌ عندما يعود ذهبًا".

حالة نزع الروح

وهنا نجد أيضًا وجهةَ نظرٍ من زاويةٍ أخرى تؤيد ما سـبق من المفاهيم. فحالة نزْع الروح ليسـت الحادثةَ التي يعيشها المرء في سكراتِ الموت، لأن حياة الإنسان كلها، عبارةٌ عن مرحلةٍ طويلةٍ من حالة النَّزْع. فالموت عند مولانا جلال الدين، ليس الحالة التي تتحقق دفعةً واحدةً، ولكنه سلسـلة أحداثٍ تنتشر في زمانٍ طويل، وتبدأ هذه السلسلة بمجرد قدومنا إلى الدنيا، أدركنـا ذلـك أم لـم ندرك. ومـا ذُكِر عن ابـن آدم ينطبق على

سـائر الكائنـات، فكل مخلوقٍ يكون مع المـوت وجهًا لوجهٍ في كل حين.

فإن كان الأمر كذلك، فما الذي يعنيه موتُ الإنسان عندما يفارقُ الحياة؟! نجد الجواب على هذا السؤال في أوجز تعبيرٍ عند يونس أَمْرَهْ حيث يقول: "إنْ مات، مات الجسدُ، فالأرواح لا تمـوت". فإن كان الذي يموت -حسـب يونـس أمره- هو الأجسـاد، فليـس هناك مـوتٌ في الحقيقـة. وهنا يتبـادر هذا السؤال: فلماذا يموت الجسد إذن؟! سؤال يُتوقَّع أن يخطر في بـال كل واحد منـا. والجواب عليه عند مولانـا جلال الدين: "بستانيٌّ كان يُعِدّ حديقتَه للزراعة، ناداه شخصٌ يراه من بعيد: لمـاذا تخرِّب الأرض يـا هذا؟! فأجابه البسـتاني: بدونه كيف تغدو الأرض حديقةً يا أحمق؟!".

فالسؤال عبثٌ في أصله، وغريبٌ غرابةَ السؤال عن حراثة الأرض، فكمـا أنـه لا يخـاط الثـوب مـن غير قمـاش يُفصِّله خيـاط، ولا طحيـنٌ من غيـر طحن حبوب القمـح، كذلك لا يمكـن بلوغ الكمال ما لـم يمزَّق لباسُ الروح (البدن). فالذي يمزَّق ويَبْلى إنما هو الجسد، ولكن بتمزيقه تُنال حياةٌ أبدية.

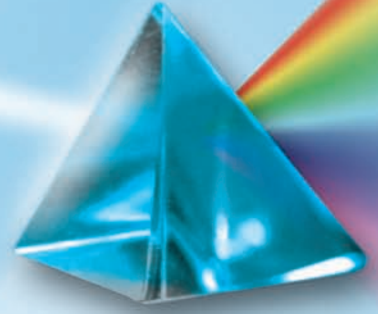
هذه النصوص التي اقتبسـناها من المثنوي وحاولنا بيانها، لـم تبق في حـدود النظريات، فقد طبقهـا مولانا جلال الدين الرومـي على نفسـه بالذات. وإذا كان المـوت في نظر الناس انقطاعًـا عن الدنيا، فإنه "ليلةُ العُرْس" عنده، ولحظة الوصال، ولقاء المحبوب.

نـرى إذن، أن مولانا جلال الدين الرومي يؤمن بأن الروح عنـد قدومهـا إلى هـذه الحياة، وعنـد تغرُّبها في هـذا العالم، تغدو حبيسة الأجسـاد، حاملةً معها حسَراتها وأشواقها لذلك العالـم الـذي قدمـت منه، ويـرى بأن الأبدان ليسـت سـوى مراكـب الأرواح، لا تسـتطيع الخـلاص منهـا إلا بالمـوت. ويسـتند في تلك الواردات كلها إلى القرآن الكريم والحديث النبوي الشـريف. كما يبين موقفه من الموت وتصرفه تجاهه، فيرى بأنه ليس شيئًا مستهابًا، بل هو عند العارفين أمر مرغوب فيه. وهذا الموقف من الموت يمنح لمولانا مكانةً متميزةً بين المواقـف الأخـرى في تاريـخ الفكر الإنسـاني. والموت عند مولانـا، عبارة عن الانتقال من حالة الفراق إلى حالة الوصال والاتحاد، وبلوغ الحياة الأبدية. ■

(*) كاتبة وباحثة تركية. الترجمة عن التركية: مصطفى حمزة.

المنشور

فتح الله گولن



درب الأنبياء

إن كنت تحلم بقطف ثمار يانعة في أعمال الإرشاد والتبليغ، فلا تحسبنّ أنها تأتيك مجانًا نتيجة خوارق تتنزل عليك من السماء، بل احرص على أن تأخذ بالأسباب كاملة يأتك الخير مدرارًا. وذلك هو الأصل في شريعة الفطرة وسنة الكون. انظر إلى النبات، أتراه يثمر دفعة واحدة؟! إنما يحتاج إلى زمن طويل من العناية والرعاية حتى ينبت فينمو فيستوي فيؤتي أُكُلَه. تماما مثل البيضة التي لا يَخرُج فرخُها سالمًا إلا بعد زمن مكتوب. فإن كنت ترجو حصيلة طيبة لخدماتك التي تقوم بها في ساحة الإرشاد، فاعلم أنه لن يتم ذلك إلا بعد أن تلتزم بكامل الأسباب الصحيحة والأساليب الصائبة التي تنسجم مع طبيعة تلك الخدمات. أما العكس فسعيٌ وراء أحلام لن تتحقق أبدًا. بالله عليك، أتظن أن الله سيغير سنته الكونية من أجل سواد عيوننا، وهو الذي لم يغيرها من أجل أنبيائه، بل حتى من أجل حبيبه الأكرم ورسوله الأعظم ﷺ؟! الحقيقة أن الأنبياء جميعهم وعلى رأسهم سيد الأنبياء ﷺ عملوا بجد وكافحوا بحكمة سنين طويلة صابرين صامدين مثابرين. ومن ثم جاء اللطف الرباني نصرًا وتوفيقًا منه تعالى، كثمرة لذلك الكفاح الطويل. إذن، من أراد التوفيق والنجاح فليسلك درب الأنبياء.

الأسوة والخدمة

إن من قُدّر لهم أن يقوموا بدور "الأسوة" في أي خدمة إيمانية، فعليهم أن يكونوا "رجال خدمة" حقًا، بكل كيانهم، وفي كل شأن من شؤون حياتهم. عليهم أن يسعوا ليل نهار دون توقف، بل ينبغي ألا يراهم أحد نائمين أبدا؛ بل إذا أمكن فلتكن ثلاث ساعات من يومهم لنومهم وساعتان لسائر شؤونهم، ثم لينطلقوا ساعين خدّاما فيما تبقّى من أوقاتهم. إنه بهذا المستوى من الأداء فحسب، يمكنهم أن يكونوا "مثالا" لمن حولهم، ويكونوا قد وفّوا المسؤولية حقها. أحسب أن أبطالا قد نذروا أنفسهم للخدمة وفقًا لهذه المقاييس سوف يخطئون الطريق إلى منازلهم في بعض الأحيان. هذا وينبغي على "رجل الخدمة" أن يدير ظهره إلى كل شيء يشغله عن قضيته، وألا يقع أسير أي قيد يمنعه من السعي أبدًا، مَنزلا كان أو أهلا أو عملا أو أي شيء آخر... إن "صاحب القضية" أصلاً، ليس له حياة خاصة، اللهم إلا في بعض شؤونه الضرورية.

كظم الغيظ والبطولة

لا شك أن حبس الإنسان لغضبه وكظمه لغيظه إزاء ما يلقاه من إساءات ومنغّصات مناقضٌ لفطرته، لكنّ المطلوب منه، هو هذا الفعل بالذات. ثم إنّ خلوّ المرء من حاسة الغضب مَنقصَة وليست فضيلة أبدًا. إن القرآن يطلب منا في مثل هذه الحالات أن نكظم غيظنا، ونحبس غضبنا، ونصبر على الأسباب التي أثارت حفيظتنا. هناك فرق كبير بين انعدام الغيظ تمامًا وكظمه. فمن عَدِم الغيظَ لم ينل ثوابا لقاء ذلك، لأنه مصاب بحالة غير طبيعية. أما الإنسان الذي انتبه إلى نفسه فوجدها تغلي وقد أوشكت على الانفجار كالبركان، فهبّ مسرعًا، فأحكم قياد ثورتها وكظم نيران غيظها... هذا الإنسان قد يرقى إلى مقام الولاية نتيجة هذا الموقف البطولي... ■

(*) الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

فتح الله كولن

نشيد الفارس

يا أيها الفارس المِغوار،
يا ألقًا.. ويا بهاءً، فقدنا وجهَه أمدًا،
طال الفراق، فهلاّ عدتَ من غَيبة،
فيها عيوني، تطوف الأرضَ في لَهَثٍ،
وجرح روحي أليم، نازف، أبدا،
ووردتي ذبلت، في مهجتي وذوت...

أسِيحُ في الأرض،
أسأل الورى.. هائمًا، عن فارس،
حُلمي في كل آنٍ مضى،
وكل آنٍ يَحُلّ،
أن يفاجئنا، بِطَلْعةٍ...
ومضى الزمانُ منصرما،
وما يزال خيالي خافقًا جَذلا،
يفيض في القلب ألف مرة.. لهفا..

فاشدُد بِخَيل السماء،
كلُّنا أملٌ.. ترقُّب.. شَدَهٌ،
إلى غدٍ مشرق،
وعدًا عليه وإننا، سنشهده،
هنالك أفق ربيعي.. يظللنا،
يمحو الظلامَ..
ويضيء نورُه فرحا

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

أ.د. خالد الصمدي*

بين يدي قصة فريدة للمرحوم
فريد الأنصاري

لم يكن السكن مع الأخ فريد -رحمه الله- في الحي الجامعي بـ"فاس"، في الغرفة ٤٧٦ في الفترة الممتدة من ١٩٨١ إلى ١٩٨٤ سكنًا عاديًا يجمع الطلاب لحين من الدهر ثم يفرقهم الزمن في دروبه، ولكنه كان جودًا إلهيًا علينا نحن الذين منَّ الله علينا بمرافقته طيلة أربع سنوات من الدرس والتحصيل، لتستمر محبتنا إلى أن نلتقي بمنّ الله ورحمته في ظل عرش الرحمن يوم لا ظل إلا ظله.

كانت هذه الغرفة مدرسة حقيقية للإبداع الأدبي والتربية والتزكية والتحصيل العلمي، لم نكن ونحن ننتسب إلى شعبة الدراسات الإسلامية، أن تحدنا حدودها وحدود مقرراتها، فقد أقنعتنا سعة نظر الأخ فريد -رحمه الله- وحبه للعلم، أن التكوين الجامعي حقل مفتوح لا تحده حدود. فكنا نختار من حصص الدكاترة ما تطمئن له أنفسنا ونزداد منها علمًا، فلا يكاد يمر علينا أسبوع من الدراسة، إلا وقد درسنا حصة من الفكر الإسلامي عند الدكتور حسن حنفي في شعبة الدراسات الإسلامية، وحضرنا حصة للتاريخ عند الدكتور محمود إسماعيل في شعبة التاريخ والجغرافيا، وحضرنا حصة علم النفس مع الدكتور بنحدو في شعبة الفلسفة، واستمتعنا باللغة العربية من معينها عند الدكتور عبد الله الطيب، وحصة النحو عند الدكتور فخر الدين قباوة في شعبة اللغة العربية، وعرجنا على كلية الشريعة لنحضر حصة التفسير البياني عند الدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ يوم الأحد صباحًا، قبل أن نعود إلى غرفتنا لنضع هذا الرحيق المختوم من المعارف على طاولة النقاش والدرس، مع كؤوس الشاي التي لا تخلوا منها جلسة.

وبين الفينة والأخرى كان فريد -رحمه الله- يختفي عنا وهو بيننا، فيجلس القرفصاء فوق سريره كأنه جالس على تل رملي في صحراء أرفود (البلدة التي وُلد فيها فريد ونشأ) صامتًا مركّزًا لا يشعر بما حوله ولو كان مدفع الثكنة العسكرية التي كان لا يفصلها عن حيّنا إلى بضع أمتار، وكان الجند يتدربون فيها على إطلاق مدافعهم بين الفينة والأخرى، فتمتلكنا الرهبة من عظم ما نسمع. فكنا نوقن أن ناموس الشعر أو القصة قد تلبسه، فلا نكلّمه ولا نزعجه كي لا نحرم أنفسنا من الاستماع بعد ذلك، إلى أبيات شعر غاية في الإبداع أو قصة غاية في التصوير والإتقان أو مقال أدبي ساحر من الأوضاع السياسية والاجتماعية التي تعيشها الأمة الإسلامية. وكنتُ ألحظ في محياه قلق الكتابة، فإذا استلقى على ظهره بين الفينة والأخرى، ورفع الدفتر ينظر إليه مستمتعًا بما كتب من الفقرات قلنا: قصة، وإذا قفز من مكانه وغيّر جلساته وكأنه لا يرتاح لوضعية واحدة في الجلوس قلنا: قلق الشعر، وإذا انطوى على نفسه واستوى على كوعه قلت: مقال ناقد للأوضاع فهي مسببة للانطواء، وثقل حملها يتطلب الاستواء على الكوع، ووضع الرأس بين راحة اليد، فيكون ما يكتب كذلك.

وقد كنت -شهد الله- أعرف بنفسيته وهو يكتب، وكنت أول من يقرأ عليه في الغرفة ما كتب إذا كتب. وأحيانًا يحس أنه في حاجة إلى مزيد من الهدوء ومناقشة ما يكتب، فيدعوني إلى أن نخرج سويًا إلى خارج أسوار الجامعة، فنجلس على هضبة مطلة على مدينة فاس العتيقة بمنظرها الساحر، فندخل في نقاش علمي وفلسفي عميق لا يخرجنا منه إلا أذان الصلاة. فكان -رحمه الله- يفتح في فهمي أخاديد من الأسئلة لا زلت أبحث عن أجوبتها في مدرسة الحياة إلى الآن، وقلق السؤال هو مفتاح الإبداع.

وأغلب ما كتب فريد -رحمه الله- من إبداعات في هذه الفترة لم ينشر إلى الآن، وبعض نقاشاتنا وجدت أثرها بعد ذلك في قناديل الصلاة، وكشف المحجوب، والبيان الدعوي وغيرها مما كتب بعد ذلك بسنوات. وعلى غير العادة، كان في بعض الأحيان لا يكتب في دفتره الخاص، وإنما يطلب كتاب أحدنا ليسجل فيه بعض إبداعاته فيما يشبه رسائل خاصة للمعنيّ بالأمر، أو إبداعًا أدبيًا يخصه به هدية وعربون محبة، وكان فريد لا يهديك إلا إبداعًا أو تمرًا.

فكانت هذه القصة مما خصني به، وأنا أخص بها مجلة "حراء"، لأن فريدًا -رحمه الله- كان يخصها بحب خاص، وأحس أنني أستشيره الآن وهو في مرضاة ربه فيجيبني موافقًا: حسنًا فعلتَ... رحمك الله أخي فريد وأسكنك فسيح جنانه.

قصة

أ.د. فريد الأنصاري*

نهاية الجبروت

ك

كان الليل قد مضى إلا ثلثه عندما كان يقترب بلباس البحارة نحو الشاطئ بخطى متلصصة، حاملاً كيسه بيده وصنارة بأخرى، ونسيم السحَر يهب حاملاً أنداء البحر الباردة، وأنساج الضباب تعلو الأفق العريض، تتخللها أنوار البدر الساطع فتكسوها بهاء وجمالا.

نظر إلى الأفق فرأى منارة الميناء تشع بنورها قريبا، فانحدر تجاهها في خفة وهو يشعر بنوع من الحرية والانطلاق.. فقبْل قليل كان سجينًا في قفصه الذهبي، ولم يتخلص من حرّاسه إلا بأعجوبة.. فقد ترك القصر ولم يشعر به أحد، إلا حارسه الخاص كاتم أسراره ومدبر أمره. فمضى نحو مجموعة من الزوارق الراسية على الميناء والفرحة تملأ صدره، وما أن اقترب من الحبال التي تشدها إلى اليابسة، حتى



علا صوت حارسها الذي امتد على إحداها قائلا:
– من هناك؟ ماذا تريد؟
قال وهو يحاول تغيير نبرات صوته حتى لا ينكشف أنه أمير البلاد.
– صياد.. هل من زورق للكراء؟
فانتصب الحارس واقفًا وهو يحمل قصبته بيده وقال:
– لقد سبقك الصيادون إلى الزوارق الجيدة منذ أول الليل، ولم يبق إلا هذا الذي أنا جالس عليه، وهو ممزق الشراع، وأما هذه الأخرى فهي غير صالحة للإبحار كلها.
– أظن الجو جميلًا، والبحر هادئًا.. أفلا يمكن الإبحار بغير شراع، وإنما بالاعتماد على المجذافين، سيما وأنا لا أنوي الابتعاد كثيرًا؟
– هو كذلك..
قالها وقفز إلى قارب آخر بخفة وأردف:
– هذا هو الزورق، فلا تتجه نحو مصب النهر فيدفعك التيار إلى وسط البحر وتجد مشقة في العودة.
فتردد.. ولكنه سرعان ما تذكر أنه يجب أن يبدو بمظهر الصياد المحترف، ثم قفز إلى الزورق، وما أن وصله حتى شهق شهقة عالية، فوضع يده على صدره الذي كان يتفطر هولًا وجزعًا، والزورق يميل يمنة ويسرة. فضحك الحارس بصوت عال وقال ساخرًا:
– تبدو وكأنك تركب الزورق لأول مرة.
فردّ وهو يحاول إخفاء نبرات صوته كما يحاول إخفاء اضطرابه:
– إنما أصبت بمرض صدري منذ أيام فلا أستطيع القفز.
وضع الكيس أمامه، وربط القصبة إلى عمود الشراع الصغير، وأخذ يجذف محاولًا إخراج الزورق من زحمة الزوارق الراسية وهو يصطدم بها من حين لآخر، والحارس ينظر إليه في استغراب حتى خرج من ضيق الميناء إلى سعة البحر.
فتنفس الحارس غيظًا وتمتم:
– ولكن المرض لا يتدخل في حسن القيادة...
...
أحسّ بعياء شديد في ذراعيه وارتخاءٍ في جسده، فتمدد على ظهره فوق الزورق قابضًا بيديه على قصبته التي تدلّى خيطها في الماء الهادئ وراح يتمتع بمنظر السماء، وقد بدت النجوم كأنها عيون ترقص خلف خمر سوداء، فنسي ملكه وهمومه، وأخذته سنة خفيفة مضى بعدها في نوم هادئ لم يستفق منه إلا بعدما أحس بالقصبة تهتز بين يديه، فانتفض ليجذبها بسرعة، فخرجت من صفحة الماء سمكة تتخبط بشدة وهي تحاول الإفلات من الشصّ. فضحك وقال وهو يضعها داخل الزورق:
– تحاولين النجاة من قبضة الملك، لقد حاول ذلك آلاف الجنود فكان مصيرهم أن قطعت رؤوسهم بسيوفهم التي تمردوا بها. إنني ما أقدمت على أمر إلا كان معه السمع والطاعة، فاسمعي وأطيعي يا سمكتي الجميلة.
قالها وهو يدخلها بهدوء إلى الكيس الصغير أمامه.
...
استنشق الهواء ملء منخريه.. فأحس بالتهاب داخل خياشيمه.. لقد برد الجو أكثر.. ونظر في الأفق فقال:
– لعلي قضيت وقتًا طويلًا في البحر.. يجب أن أعود قبل انفلاق الفجر.
وكان وقت الفجر يقترب بالفعل، فأخذ يضرب بالمجذافين يحرث البحر في اتجاه الميناء.
كان العرق قد أغرق رقبته وصدره، ويداه تجذفان ببطء، وأنفاسه تتقطع.. لقد كلّت ذراعاه.. توقف عن التجذيف برهة ثم نظر إلى الأفق أمامه يبحث عن منارة الميناء فلم يعثر لها على أثر في ذلك الظلام الدامس الذي رحل عنه البدر قبل قليل، ثم نظر إلى الأفق وراءه، فلم ير غير الظلام، فتمتم في جزع:
– إلهي.. أين النجوم ؟ أهي الغيوم التي غطتها؟ وأين المنارة؟ أين الميناء؟ وفي أي مكان أنا بالذات؟ أيكون التيار قد جرفني حقًا إلى وسط البحر؟ كيف؟ لا يمكن.. فأنا الملك.. لا شيء يتحرك من غير أمري أو في غير خدمتي..
جذف ثانية في قوة وإصرار، لكنه كلَّ بسرعة، فأحس بالزورق يولّي إلى الوراء كأنما هو في نهر جار.. فصرخ فيما يشبه الجنون:
– كلا.. توقفْ أيها التيار.. فأنا الآمرُ.. وليس لك إلا أن تسمع وتطيع.
ولكن التيار كان أكثر تمردًا من جنده وأكثر قوة، فقد استمر يجري به دون توقف ولا إذعان..
تنبه الأمير إلى الريح التي تهب في هدوء في عكس اتجاه

المياه، فانتفض على عمود الشراع وأرخى حبله، وسرعان ما تبين له أنه شراع ممزق، وتذكر كلام الحارس عندما كان يخبره بذلك فصاح كالمسعور:

– تبًّا لك أيها الحارس.. ألم تعلم بأني الملك؟ وكيف تدفع لي زورقا كهذا؟ يا كاتم السر.. أيها الحراس.. أريد خير زوارقي الساعة.. بل أريد سفينتي الخاصة.. هيا اسمعوا وأطيعوا.

تردد صراخه في الأفق المظلم، ولكنه سرعان ما اختفى في هدير الرعد القادم من بعيد.

كانت الغيوم قد اكتسحت أفق البحر حقًّا منذرة بهبوب عاصفة كان أزيزها يُسمع من بعيد، وكانت الأمواج تتحرك شيئًا فشيئًا فترفع الزورق تارة وتخفضه أخرى، فاسودت الدنيا في نظر الأمير وهو يخبط بالمجذافين في غير اتجاه.. لقد ضل في ظلمات بعضها فوق بعض.

...

كانت دموع الغيظ تسيل على خديه ببطء وهو يصيح:

– تبًّا لك أيها البحر.. كيف تجرؤ على حبسي هنا وأنا الذي أَحبِس ولا أُحبَس، وأحكم بالإعدام على مَن أشاء؟ ويلك مني ويلك.. لن أرحمك.. لن أرحمك.. سل قارك يجيبك من أنا.. فهناك آلاف الجثث راقدة.. لقد حاولتْ مثلك التمرد والعصيان، فكان مآلها الهلاك والخسران.

اهتزت المياه غاضبة كأنها فهمت كلامه، ورفعته إلى أعلى ثم خفضته في عنف، لتمضي أمامه موجة هائلة في هدير قوي تكسرت بعدها على أحجار قريبة ضاحكة في سخرية مرة واستهزاء شديد.

انتبه الأمير إلى أن هناك شيئًا ما قد تكسرت عليه المياه، فخطر له أنها جزيرة صغيرة، فحاول أن يتحرك نحوها، ولكن الأمواج كانت ترده بقوة.. فقد كانت العاصفة قد انطلقت عاتية غضوبة، وكان البرق يشتعل من فوق رأسه كألسنة جهنمية، والموج يتصاعد من كل مكان، فتبدو له الأشباح في الظلام هياكل عظيمة ذات جماجم كبيرة تشق البحر، فتدفع بالأمواج نحوه وهو يصرخ ولا من مصرخ.

كانت صرخاته تضيع في العاصفة وتذوب في هدير البحر متقطعة:

– آآ.. كلا.. أجئتم لتنتقموا يا أبناء الكلاب؟ فأنا أقدر على ذبحكم مرة أخرى.. هي.. هي.. هيا اغربوا عن وجهي.. أ.. أ.. أنا من تعرفون.. عودوا إلى القرار.. إني آمركم.. عودوا إلى موتكم.

كان يجذف في الظلام جاحظ العين، وقد التصق بعمود زورقه الذي صار لعبة الأمواج، فتبدو له الأشباح عظيمة تتكاثر ولا تسمع لأوامره، وإنما تزداد منه اقترابًا، ثم يحملق فيها أكثر، فإذا بها تبدو وقد أبرزت أنيابًا ونواجذ عظيمة تمد له أياد كأذناب العفاريت.. فيصرخ ثانية في جنون:

– أيها الحراس.. استعدوا.. أيها الجنود.. أقبلوا جميعًا.. إن الموتى قد عادوا.. الحقوا بي كلكم.. أبحروا بكل رماحكم وسيوفكم.. أيها الحراس.. أيها الجنود أيها الحرا...

ولم يتمّها.. فقد رفعت الزورقَ موجةٌ عنيفة ثم حطمته إربًا إربًا.. وغاص الأمير نحو القرار.

...

كان أذان الفجر يرتفع قويًا في المدينة عندما سمع حراس القصر وجنوده صراخ الأمير يرج أنحاء القصر، وهو يأمرهم بأوامر غريبة، وينادي بكلمات غير مفهومة.

استيقظ وأذان الفجر لا يزال يتردد في الآفاق من صوامع المدينة المتعددة، معلنًا زوال الليل وانطلاق يوم جديد من مكامن الغيب المجهول.

استوى جالسًا ببطء وهو يشعر بتعب شديد ثم قال مغتاظًا:

– ألا تبًّا له من حلم رهيب.

حاول أن ينهض فلم يستطع، ثم أردف قائلا:

– آه لنفسي المرهقة..

فرك عينيه ثم نظر إلى الأفق من نافذته الزجاجية.. كان نور الفجر ينطلق من بعيد ويمتزج بالغيوم التي تلبدت في الفضاء فحوّلتها إلى بحيرة دم سابحة نحو المدينة.

فتح النافذة، استنشق أنسام الصباح، فتأكد أنها تنذر بيوم مطير، فاختلج قلب الملك في صدره جزعًا، وساق النسيم إلى وجهه نقط ماء باردة، فهجم على النافذة وأغلقها بعنف.. في حين كان الناس في الطرقات يعودون من صلاة الفجر، ويرددون تباشير أنواء تلوح بعد دهر جديب، وقد امتلأت صدورهم فرحًا وانطلقت أساريرهم بهجة، وتعالت أصواتهم بالتكبير مرحّبة بقدوم عهد خصيب. ■

(*) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية / المغرب. والدكتور فريد الأنصاري من علماء المغرب وأقلام "حراء" رحمه الله.

أ.د. أحمد عبادي*

ما خابَ من استشار، ولا ندم من استأنس بأفكار الآخرين.. قراراتك تظل مصحوبةً بالنجاح ما دمتَ تقيم لآراء الآخرين وزنا. أما إذا ركبك الاستبداد، وبرأيك وحده الإعجابُ، فذاك هو الإحباط بعينه، والفشل بنفسه..!

* * *

النبوة والإنسان

١

الوحي من الله ﷻ إلى مخلوقاته في القرآن المجيد على ثلاثة أقسام: ١-وحي منه تعالى إلى الملائكة. ٢-وحي منه سبحانه إلى الإنسان. ٣-ووحي منه ﷻ إلى المخلوقات الكونية. ولكل من هذه الأقسام طبيعته وشاكلته التي يعمل بحسبها.

فالوحي الذي للملائكة أمر منه سبحانه ولا يدخل في بنيتها الخلقية إمكان عصيانه، قال تعالى:﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(التحريم:٦)، والذي للإنسان هداية تبليغ، يملك هذا المخلوق اتباعها، كما يملك التنكّب عنها، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:٧-١٠)، وقال:﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾(الأعلى:١٠-١١).

والوحي الذي للكون هداية تسخير لا يملك التنكب عنها، قال تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ

وحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾(فصلت:١٢)، وقال: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾(النحل:٦٨).

إن طبيعة عمل الوحي في المجال الإنساني تنسجم وتحمّل الإنسان للأمانة، كما أن طبيعة عمل الوحي في المجال الكوني تنسجم وإباء الكون تحمل الأمانة وإشفاقه منها، وهو ما يتضح في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(الأحزاب:٧٢-٧٣).

وبناء على هذا، فإن طبيعة عمل الوحي في المجال الكوني كانت هي الطوع والهداية المبنية على التقدير، قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾(فصلت:١١)، وقال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى:١-٣)، وقال سبحانه على لسان سيدنا موسى عليه السلام في معرض جوابه على أسئلة فرعون، معبّرًا عليه السلام عن إدراك نبوي عميق لهذه الحقيقة: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾(طه:٥٠)، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾(يس:٣٨-٣٩). بيد أن طبيعة عمل الوحي في المجال الإنساني بمقتضى حمل الأمانة، تنبني على الكدح والمكابدة وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾(البلد:٤)، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾(الانشقاق:٦).

ويتضح الفرق بين شاكلتي عمل الوحي في كلا المجالين انطلاقًا من المصطلح المفتاح "السبل". فالسبل في المجال الكوني تسلك ذُللا (أي بيسر) وهو ما يتجلى من خلال قوله تعالى في معرض الكلام عن طبيعة عمل الوحي في المجال الكوني: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾(النحل:٦٨-٦٩). في حين أن السبل في المجال الإنساني تسلك مكابدة وكدحًا كما يتّضح من قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(العنكبوت:٦٩)، ومن قوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۞ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(المائدة:١٥-١٦).

انسلاك الإنسان في موكب الساجدين

ويبرز في القرآن المجيد أن نتيجة عمل الوحي في المجالين هي السجود، غير أن السجود في المجال الكوني –ولطبيعة عمل الوحي فيه– يتم تلقائيًا تقديرًا وهداية، في حين أنه لا يتم في المجال الإنساني إلا بالكدح والمكابدة، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾(الحج:١٨)، ويقول: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ۞ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۞ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ۞ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ۞ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:١-١٠)، حيث جاءت كل الكائنات المذكورة في هذه الآيات معرّفة إلا النفس الإنسانية، فقد جاءت نكرة، وذلك لأن كل الكائنات –بناء على ما سلف– تولد ووحيها معها، ولذلك هي معرّفة، بيد أن الإنسان هو المسؤول عن إدخال الوحي إلى مجاله، ولذلك فهو المسؤول عن وضع ألف لام التعريف التي تناسب مسلكه أمام نفسه، لتكون إما "النفس المطمئنة" أو "النفس اللوامة" أو "النفس الأمارة بالسوء".

إن انسلاك الإنسان في موكب الساجدين لله عز وجل أمر لا

يبرز في القرآن المجيد أن نتيجة عمل الوحي في المجالين هي السجود، غير أن السجود في المجال الكوني –ولطبيعة عمل الوحي فيه– يتم تلقائيًا تقديرًا وهداية، في حين أنه لا يتم في المجال الإنساني إلا بالكدح والمكابدة.

يمكن البتة بدون الوحي. فكما أن أمر الكون لا ينصلح بدون الوحي إلى السماوات والأرض ومختلف الكائنات وكذا التقدير والهداية، فإن أمر الإنسان فردًا وجماعة لا ينصلح بدون الوحي، ومن هنا محورية النبوة في حياة الإنسان، يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ۞ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۞ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۞ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ۞ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ۞ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۞ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ۞ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(النساء:١٦٣-١٧٠).

إحلال الوحي في واقع العالمين

وإن إحلال الوحي في واقع العالمين كان هو العمل الذي قام به سيدنا رسول الله ﷺ مع الجماعة المسلمة الأولى التي تعتبر جنين الأمة الفرد/الجسد،[1] الأمة التي تكتمل عبر الزمن، حيث تركها عليه أزكى الصلاة والتسليم مقياسًا شاخصًا لا تتخوّفه الأحداث. فقد بدأ زرعه عليه الصلاة والسلام للآيات من نفسه الشريفة؛ "كان خلُقه القرآن" (رواه البخاري)، ثم زرعها في نفوس أصحابه الكرام ﷺ، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾(الفتح:٢٩)، ليرفعها الأصحاب الكرام ﷺ علامات وبصائر في واقعهم، واقع المدينة المنورة والذي استحق أن يكون الوحدة القياسية وحالة السواء التي تقاس عليها التجمعات البشرية.

لقد شبه نبي الهدى ﷺ عمله بعمل الفلاّح البصير الذي يعالج الأرض الصالحة متحينًا أوقات الحراثة والنقش والتنقية والسقي، مترصدًا تقلب الأنواء، محددًا -عبر الموسم- أنواع الوظائف والمهام التي يرتبها على نفسه لاستخراج أحسن ما يمكنه -بقدر الله- من هذه الأرض. فعن ابن مسعود ﷺ قال: "كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا" (رواه البخاري ومسلم).

وقال النبي ﷺ: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به" (رواه البخاري). فرسول الله ﷺ كان يبث الآيات في نفوس أصحابه الكرام ﷺ بطريقة رباعية الأبعاد.

البعد الأول: تلاوة الآيات وتأوّلها واتّباعها بين ظهرانيهم ليروا ذلك ويحيوا نورانيته، قال ﷺ: "صلّوا كما رأيتموني أصلي" (رواه البيهقي)، وهي سنته الفعلية.

البعد الثاني: تعليمهم الكتاب ومعانيه العلمية والعملية فقهًا وتمثلا.

البعد الثالث: بناء مهارات في أنفسهم تمكّنهم من الفرقان والتمييز وتعلمهم وضع الأشياء والأقوال والمقدّرات في مواضعها، وتلكم الحكمة.

البعد الرابع: تزكيتهم وتنويرهم تخلية وتحلية وهو البعد الأخص.

وقد كانت وراثته ﷺ في البعدين الأول والثاني عامة وفي البعد الثالث أقل عمومًا، أما وراثته في البعد الرابع فكانت خصوص الخصوص. وهذه الأبعاد هي التي يجمعها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾(الجمعة:٢). والصحابة الكرام ﷺ كانوا هم مستودع هذه الأسرار وجماعها وتجلي أنواره النبوية تلاوة، وتزكية، وتعليمًا للكتاب، وتعليمًا للحكمة. وخرم دائرتهم النورانية بسب أو بقذف خرم للكل النوراني المجموعي التمامي الذي شكلوه ﷺ، ولعل حرص سيدنا عمر ﷺ

على بقائهم في المدينة وعدم ترخيصه رضوان الله عليه لهم بمغادرتها أثناء حياته كان صادرًا عن هذا الوعي، وكان تجليًا لحرصه المبارك على استكمال البناء واستتباب الدين قبل الانطلاق في عملية بثه في الآفاق.

تجريد الوحدة القياسية

إن تجريد الوحدة القياسية على الصعيدين الفردي والجماعي أمر في غاية المحورية في حياة الإنسان فردًا واجتماعًا. فقد عانت البشرية كثيرًا -ولا تزال- في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية من جراء عدم الاستبصار بمعالم وسمات الإنسان السوي والمجتمع السوي، المشكّلين للوحدة القياسية التي يجب أن يُتيمّم شطرها بالمناهج والبرامج التربوية، وكذا بمختلف أنواع الكسب العلمي والعملي في المجالات الاجتماعية والنفسية.

ولذلك نرصد في مختلف حقب تاريخ البشرية المعروف، كثيرًا من التخبطات وأضرب الخرص في المجالات التربوية والاجتماعية والإنسانية بسبب غياب هذا الوعي الأساس.

وتأتي الأهمية البالغة للوحدة القياسية الدالة على حالة السواء، من كون التعرف على حالات الاختلال والانحراف لا يمكن بدونها، كما لا تمكن بدونها معالجة هذه الاختلالات والانحرافات. وهذه حقيقة ماثلة في مختلف مجالات العلوم المادية والإنسانية، غير أنها اليوم أجلى وأظهر في العلوم المادية البحتة منها في العلوم الإنسانية.

لقد حاولت البشرية في مختلف مواقعها عبر تاريخها الممتد، أن تحل إشكال الوحدة القياسية على الصعيد الاجتماعي من خلال إنتاج يوطبيات (Utopias) حول طبيعة مكونات المجتمع الفاضل والمدنية الفاضلة، وعلى الصعيد التربوي من خلال إنتاج مفهوم البطل.

أنموذجًا على المحاولات في الجانب الاجتماعي، جهود أفلاطون في "المدينة الفاضلة" وجهود القديس أغوسطين في "مدينة الإله" وجهود الفارابي في "المدينة الفاضلة" أيضًا، وكذا جهود كارل ماركس وبعده لنين، وكذا تصورات كل من ستالين وهيتلر وموسوليني للمجتمع الفاضل، وهي يوطبيات جرت لعدم مواءمتها لطبيعة الإنسان والكون على العالمين وبالًا غير قليل.

وأنموذجًا على المحاولات في الجانب الفردي، ما يوجد في الأعراف المصرية والإغريقية والهندية والصينية وفي حضارات بلاد الرافدين، وكذا في الحضارة الرومانية من إقامة النصب والتماثيل لأشخاص مختارين يرفعون إلى مصاف الأبطال ليكونوا مُثلًا تربوية يعاد إنتاجها، غير أن ضعف المؤهلات الإدراكية والآليات التفكيكية، لم يمكّن من الرسم العلمي والوظيفي لمعالم شخصياتهم وسمات نفسياتهم ومراحل مساراتهم، مما كان يؤدي في كثير من الحالات إلى الانحسار في التقديس. وقد استمر هذا الخط في الحضارة المعاصرة، إذ يلحظ استمرار البحث عن الأبطال لإرسائهم نماذج تحتذى، وصب سمات شخصياتهم الأساسية في المناهج التربوية. غير أن هذا النهج -كذلك- لم يحقق إلا نتائج جزئية لغياب الاستبصار بحقيقة الإنسان السوي ودوره الكوني.

الإسلام وردم الهوة بين المتأسي والمتأسى به

حين نبحث إشكال التأسي في القرآن المجيد وفي السنة النبوية المطهرة، نجد تمحورًا حول المحاور الكبرى الآتية:

١- **النبي بشر عبدٌ لله مثل البشر**، غير أنه اصطُفي بعلم الله ليوحى إليه. ونجد ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾(الكهف:١١٠).

٢- **التأسي في القرآن المجيد** يتم بالنظر إلى النبي المثال فبالنظر إلى الحال ثم العمل على الانتقال من الحال إلى المثال. قال تعالى في معرض الكلام عن نبيه إبراهيم عليه السلام وعن أتباعه الخُلّص: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(الممتحنة:٦)، وقال عن خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾(الأحزاب:٢١).

فالأنبياء إذن، مثال هاد لمن قام في قلوبهم الشوق والتوق إلى ما عند الله سبحانه، وتجلى هذا الشوق وذاك التوق بالذكر الكثير له سبحانه. والأنبياء هم الوحدة القياسية المرجع التي تمثل حالة السواء الشاهدة التي ينبغي أن يرصد من خلالها الحال، لكي يتم العمل للعالم المهتدي على نقله إليها. فهو إذن، شوق وتوق وذكر كثير ونبي شاهد وعمل دؤوب عالِم، ففضل من الله كبير، مع وجوب الانتباه إلى العقابيل الحائلة دون هذا الإنجاز الضخم -التأسي- الذي عليه يقوم تحصيل السعادتين في النشأتين بالتوكل على الله تعالى.

وهـذه المعانـي كلهـا قد جمعها قول الله ﷻ في سـورة الأحزاب، إذ قـال: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُـولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۞ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُـمْ وَمَلَائِكَتُـهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّـورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۞ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ۞ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۞ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۞ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۞ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾(الأحزاب:٤٠-٤٨).

٣- النبي شـاهد وشـهيد مُؤيد: النبي هو الوحدة القياسية الشاهدة التي تمثل حالة السـواء في المجال الإنسـاني، والتي بالنظر الواعي إليها يتـم التعرف على الاختلالات التـي فـي هـذا المجال جمعًا وإفـرادًا. بذلك يحصل إمكان العمل علـى ردها إلى حالة السواء.[٢] وتلك نعمة من الله جُلّى.. حتى إذا تمت إفادة الأمة من النبي ﷺ، فإنها بدورها تصبـح وحدة قياسـية علـى الصعيد الاجتماعي والحضـاري، يمكّن التعـرّفُ عليها من التعـرّف علـى الاختلالات في هـذه الأصعدة، ومن ثم يمكن التعـرف على ما يلزم من العمـل لـرد هـذه الاختلالات إلى حالة السـواء، وهذا هو ما يتجلى فـي قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُـولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(الحج:٧٨)، وفي قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَـطًا لِتَكُونُوا شُـهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣).

وحتـى يكـون النبـي بعـد اصطفائـه لهـذه الوظيفـة التكوينيـة الخطيرة قـادرًا على الاضطـلاع بهـا، يكون إنعام الله بالتأييد. قال تعالى عن نبـي الختم ﷺ: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُـوكَ فَإِنَّ حَسْـبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّـدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾(الأنفـال:٦٢). كما أن النبي لهـذا القصـد -قصد أن تمثل فيه الوحدة القياسـية الشـاهدة- يصنع ظاهـرًا وباطنًا على عيـن الله ﷻ، وقـال سـبحانه عن نبيه موسـى ﷺ: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّـةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾(طه:٣٩)، وقال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾(طه:٤١)، وقال سبحانه عن خاتم النبيين: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۞ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۞ وَرَفَعْنَا لَـكَ ذِكْرَكَ﴾(الشرح:١-٤). وقـال ﷺ فـي هـذا المعنى: "أدّبني ربي فأحسـن تأديبي" (كشف الخفاء). فكانـت النتيجـة في حقه عليه الصلاة والسـلام هـي قوله تعالـى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:٤). ومن أجل ذلك كان اتباعه والتأسـي به ﷺ هو المرقاة إلى مرضاة الله ومحبتـه. وقـال ﷻ: ﴿قُـلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّـونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُـمُ اللهُ﴾(آل عمران:٣١).



إن انسـلاك الإنسـان في موكب الساجدين لله ﷻ أمر لا يمكن البتة بدون الوحي. فكما أن أمر الكون لا ينصلح بدون الوحي إلى السماوات والأرض ومختلف الكائنات وكذا التقدير والهداية، فإن أمر الإنسان فردًا وجماعة لا ينصلح بدون الوحي.



الوحدة القياسية على المستوى الفردي

لقـد سـاد بين المسـلمين في الأزمنـة الأخيرة من تاريخهـم، على خلاف مـا كان عليه الأمـر فـي عهـد الصحابة الكـرام ﵃، التعامل التبركي مـع آثار ودلائل النبوة وشـمائل النبـي ﷺ وسـيرته العطـرة عليه الصلاة والسـلام. وفي ذلك خير كثير فـي ذاته، غير أنه لـو شُـفع بالوظيفية لكان الخير أعـم وأتم. ونقصد بالوظيفية هنا، أن يتم طرح الأسـئلة العمليـة علـى آثار النبوة، من أجـل تبين أوجه الشـهادة النبوية في مجـال مخصوص،

وتحديد منهجية الرد بخصوصه إلى الوحدة القياسية. وهي أسئلة لا يمكن طرحها بطريقة سليمة إلا من لدن العالمين بالمجال قيد الدرس، إذ العلم بالمجال هو الذي يمكن من تلمس مواطن الهدي النبوي فيه، للتأهيل الناجم عن استتباب التضاريس المعرفية والمركبات المفاهيمية والأنساق القياسية ذات الصلة بالمجال في أذهان المشتغلين به. مما لا ينتج إلا بطول الممارسة للبحث في مجال معين والتعاطي مع المشاكل المنهجية التي فيه. ففي التربية مثلًا، لن يكون أقدر على مساءلة آثار النبوة في هذا المجال من التربويين، لمكابدتهم له ولمعاناتهم البحثية داخله، معاناة تنشئ الشوق والتوق، وكذا الاستعداد لوجدان الحلول.

إن التعرف على الإنسان الشاهد -الوحدة القياسية- الذي يمثل حالة السواء، والذي من خلال التعرف على بنائه النفسي والشخصي والقصدي، هو المدخل لإنتاج العلوم الوظيفية والمناهج العلمية الممكنة من رد الاختلالات إلى حالة السواء، وهنا الدور المحوري الخطير لوظيفة النبوة ووظيفة الذكر الذي تأتي به متى ما حلّ الرشد في التعامل معهما والتأسي بهما. فالتعرف على حالة السواء -كما تقدم- يمكن من تجريد المثال التفصيلي الذي ينبغي أن يشمّر من خلال البرامج والمناهج، للسير بالمتربين نحوه بغير عوج ولا أَمْت. وهذا مضمار -في العلوم التربوية- للبحث والإبداع فسيح خصيب.

ودائمًا في علاقة بالوحدة القياسية على المستوى الفردي، فإن علم النفس وعلم النفس السلوكي وعلم التحليل النفسي، كلها علوم تعاني الأمرَّين لغياب العلم بماهية حالة السواء. ولا شك أن أهل هذه المجالات، إن أعملوا عقولهم ووجداناتهم لاستبانتها من آثار النبوة، فسوف يحلُّون إشكالات أليمة ومكلِّفة. لقد أنعم الله على العالمين بأن تولَّى سبحانه في مرحلة الختم بذاته العليّة حفظ الذكر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩). فحفظت بذلك آثار النبوة المنيرة، واستمر إمكان التعرف على النبي الشاهد وعلى حالة السواء من خلاله. إن هذه النعمة الجُلَّى إن شكرت بحسن التوظيف والتثمير، ولم تُكفر بالإنكار والاستهتار، لمن شأنها أن تهدي العالمين إلى مستقبلات أكثر إشراقًا.

الوحدة القياسية على المستوى الجماعي

لقد عانت البشرية كثيرًا على الصعيد الاجتماعي من آثار الجهود الخارصة، لتبيّن معالم وسمات العمران البشري الأمثل، كما عانت عبر تاريخها من إملاءات وتحكمات المستبدّين أفرادًا وجماعات. وقد كانت الذعائر والتكاليف باهظة، إذ كم قُدم ويقدّم من الأبرياء الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا حطبا لهذه المشاريع اليوطوبية، ليُتَبَيَّن بعد حين أنها لم تكن سوى سراب يباب، ولات حين مناص، وما الحالة السوفياتية منا ببعيد.

وبما رحمة من الله تعالى، فقد جعل سبحانه الوحدة القياسية على المستوى الاجتماعي، تتمثل في المجتمع النبوي، حيث تمكن النبي الخاتم ﷺ، من جعله بهداية الله وتوفيقه يَنُثُّ كله بالهداية للتي هي أقوم، فضاء وعمرانا وإنسانا ووظائف ومراكز وعلائق. وقد كان البدء بأن تم تغيير اسم مهاجر الرسول الخاتم ﷺ من طيبة ويثرب إلى المدينة -بألف ولام التعريف- ليفهم أن العمران الشاهد كان هو ذاك. ولئن تكلم الفلاسفة عن المدينة الفاضلة، وتاقوا إلى التعرف على الوحدة القياسية بهذا الخصوص، فإن النبوة -بأمر الله وفضله- قد أنشأتها واقعًا حيًا نابضًا حفظت معالمه المركزية رغم كل التفريط والتقويض الذي يَنْدُر مثله عن البشر.

فالنبي الخاتم ﷺ كما تقدم، قد زرع آيات الوحي وعلاماته وبصائره في نفوس أصحابه الكرام ﷺ، فاندَهَقَتْ منها إلى واقعهم لتكون هاديات خالدة للمحجة البيضاء التي ليلها كنهارها، ولا يزيغ عنها إلا هالك. إن في كتاب الله كما في سنة سيدنا رسول الله ﷺ، البيّنات الوافرة على السلط والمراكز والأدوار والتدبيرات والوظائف والعلائق والنماذج والأخلاق والقيم التي ينبغي أن تَشْخَصَ في المجتمع الشاهد، في حالة السراء وفي حالة الضراء، في حالة الشدة، وفي حالة الرخاء، في حالة السلم، وفي حالة الخوف، وكذا الحرب واللأواء.[٣] مما ليس ينتظر إلا العقول المتمرسة الخبيرة لطرح الأسئلة المنهجية، من أجل رفع صرح علم التأسي على الصعيد الاجتماعي.

خاتمة

وجب ختامًا التنبيه إلى بعض الأسس المهمة من أسس علم التأسي وآكدها.

١- استدماج الوعي بأنه ﷺ قد طبّق القرآن المجيد التطبيق الأمثل.

٢- أن يتم التعرّف العقلي والوجداني والعلمي على نبي الرحمة ﷺ، إذ إن هذه المداخل التعرفية متكاملة فيما بينها ويفضي بعضها إلى بعض، ولا تتصور معرفة كاملة بسيد

الخلـق عليه الصلاة والسـلام بدون اعتمادهـا جميعًا. فجماع العلـم أن يضحـى العالـم قـادرًا في كل حين أن يسـأل نفسـه السؤال الآتي: لو كان رسول الله ﷺ في مقامي ماذا كان سوف يصنع؟ ثم يكون قادرًا على الإجابة.

٣- أن يعلم المتأسـي حيثيات السـياق الزماني والعمراني الـذي يوجـد فيـه، وحيثيات سـياق المتأسـى بـه ﷺ، الزمانية والعمرانية والبيداغوجية.[٤]

٤- أن يعلـم المتأسـي الفـروق الأنتروبولوجيـة والثقافية والعُرفية وغيرها بين السـياقين، حتى إذا سـاءل في أي مجال مـن المجالات، استـدمج هذه الفروق ليكون التنزيل سـليمًا، ولا يخفى ما يقتضيه هذا من جهد بحثي ممنهج.

٥- أن يسـتدمج المتأسـي العلم بالمقاصـد العامة للنبوة، رحمتهـا وجمالهـا وشـرائعها، حتـى لا يفـرط فـي الأصـول لحسـاب الفـروع أو يقـدم ما من شـأنه أن يؤخـر أو العكس. وهذا داخل ضمن فقه الموازنات والترجيحات، وقد قام علماء الأمة -جزاهم الله خيرًا- بجهود وضيئة في هذه المضامير.

٦- أن يسـتحضر المتأسـي وجـوب النظـر فـي المـآلات واعتبارهـا، حتى لا يكون جالبًا لمفاسـد على نفسـه ومحيطه مـن حيث يريـد جلب المصالـح، وكثيرًا ما يحصـل ذلك إذا أغفل البعد المستقبلي في التنزيل.

٧- كما أن من آكد الشروط أيضًا، وجوب المقاربة التكاملية التـي لا تهمل جانبًا من الجوانـب أو تطغيه، بل تحرص على حضورها ومراعاتها جميعًا بشكل مقدّر متوازن.

وبدون مراعاة هذه الشـروط، فإنـه لا يمكن تفعيل وظيفة ودور الشـهادة كمـا جـاءت فـي مثل قولـه تعالـى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(البقرة:١٤٣).

بقيت الإشارة أخيرًا إلى أن في تراثنا جهودًا مباركة وجب اسـتئنافها فـي هذا الاتجـاه لعلماء أفاضل هم بسـبق حائزون تفضيـلا، مسـتوجبون مـن أمتهـم ثناءهـا الجميـلا، كأمثـال القاضي عياض السـبتي في "شفائه"، والشاطبي في "موافقاته" و"اعتصامه"، وابن القيم في "زاد المعاد"، والصالحي في "سبل الهدى والرشاد"، وشاه ولي الله الدهلوي في "الحجة البالغة"، وسـعيد النورسـي بديع الزمان في "رسائل النور"، وعبد الحي الكتانـي في "التراتيب الإدارية في الحكومة النبوية" والأسـتاذ فتـح الله كولـن في "النـور الخالد" وغيرهم ممـن وجب البناء على جهودهم وتثميرها.

كل ذا دون فقـدان الاسـتبصار بأنـه رغـم كل ما يمكن أن يبذل في مجال علم التأسـي، فإنـه يبقى مجالًا متجددًا بتجدد الأزمنـة والأمكنـة والأحـوال والأعراف والعـادات.. ويرحم الله الإمام السـهيلي إذ سـمى سـيرة رسـول الله ﷺ: "الروض الأُنُف".[٥] ■

(*) الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

[١] ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسـد، إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائرُ جسده بالسهر والحُمّى"، (صحيح البخاري)، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، حديث رقم:٥٥٨١.

[٢] يلاحـظ أن حالـة السـواء في كتـاب الله، نسـق مفتوح آخذ بعيـن الاعتبار للخصوصيات والسـياقات، وهو ما نرجو بعـون الله تفصيل القول فيه في بحث لاحق.

[٣] وما أروع الصورة المشرقة التي يعرضها كتاب الله لمجتمع المدينة الشاهد وهـو بعـد في طور التكويـن في مثل قوله تعالـى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحشر:٩-١٠).

وفـي سـورة البقـرة وآل عمـران والنسـاء والمائـدة والفرقـان والطـلاق والمجادلة وغيرها غرر بهذا الصدد لا تنتظر إلا التجلية المتجددة.

ولعل تنبه الإمام مالك بن أنس الأصبحي ﷺ إلى هذه الحقيقة بشكل عام وراء افتراعـه لأصـل من أصـول مذهبه المبارك، حيـث جعل "عمل أهل المدينـة" أصلا من أصول التشـريع لما تضمنه هذا المجتمع الشـاهد من هاديات لن تتكشَّف كل حقائقها إلا عبر الزمن.

كمـا أن أمير المؤمنيـن عمر بن الخطاب ﷺ لتنبُّهه إلـى أهمية حفظ هذه الوحدة القياسـية الاجتماعية في مرحلـة التكوين حتى تثبت أركانها، كان قد نهى الصحابة ﷺ عن مغادرة المدينة المنورة حتى يستتب البناء وتُحفظ الشهادة، فلم يتمكنوا من مغادرتها إلا بعد وفاته ﷺ.

[٤] لأنـه ﷺ جاء معلمًا للناس: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:١٥١). فوجب أن يؤخذ هذا الجانب التعليمي أيضًا بعين الاعتبار حين التأسي.

[٥] أي الروض البكر الذي لم يُدخل قط!

صلاح عبد الستار الشهاوي*

البتّاني

فلكي ورياضي فذ

بعد أن حمل المسلمون أنوار الإسلام إلى الدنيا، ورفعوا لواء الحضارة والعلم والمعرفة قرابة قرون ثمانية فيما بين الأندلس غربا وبلاد السند شرقًا، تركوا للمعرفة الإنسانية تراثًا لم تتركه أمة قبلهم ولا بعدهم، يتمثل في أمهات الكتب والمعاجم والموسوعات التي خطتها أقلام العلماء والأدباء الذين أفنوا أعمارهم في التفكير المثمر والإنتاج الغزير نثرًا وشعرًا وعلمًا وفنًا، وكانوا يطربون لصرير أقلامهم كما يطرب الموسيقار لألحان الآلة التي يعزف عليها.

ومن هؤلاء العلماء الأفذاذ، الفلكي أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان البَتّاني. يكنى بـ"البَتّاني" نسبة إلى مسقط رأسه "بَتّان"، كما يكنى بـ"الرقّي" نسبة إلى مدينة "الرقة" التي قضى بها معظم حياته مع الكثير من الأسر الحرانية، وأنجز بها الكثير من أرصاده وإنجازاته العلمية.

ولد أبو عبد الله البتاني حوالي عام (٢٤٠هـ-٨٥٤م) في "بتان" بإقليم حران. وينسب إقليم حران إلى مدينة حران التي كانت تقع بشمال غرب العراق بين مدينتي الرقة والرها بشمال غرب العراق. وكانت أسرته تدرّس قديمًا الديانة الصابئية، ومنها جاءت نسبة "الصابئي" إليه مع أنه كان مسلمًا قبل أن يكون عالمًا.

أمضى البتاني معظم حياته يرصد الأجرام السماوية بمرصد الرقة أو مرصد "البتاني" من عام (٢٦٤هـ-٨٧٨م) حتى عام (٣٠٦هـ-٩١٨م). وقصد بغداد في إحدى مهماته العلمية، لكنه توفي عام (٣١٧هـ-٩٢٩م) في الطريق أثناء عودته في قصر "جيس" إلى الغرب من دجلة، قليلًا قرب سامراء.

دراسته وحياته العلمية

لا تتوافر تفاصيل عن أساتذة البتاني والمرحلة التعليمية في حياته، لكن المعروف أن "علي بن عيسى الأسطرلابي" و"يحيى بن أبي منصور" كانا أكبر الفلكيين في العصر الذي نشأ فيه، ويحتمل أنه تتلمذ على أحدهما -خصوصًا وإن الأول كان حرانيًا مثله- أو على بعض تلاميذهما. الأمر المؤكد أن البتاني قد استوعب المؤلفات الفلكية المتوافرة في عصره، خصوصًا المجسطي لبطلميوس، والذي كتب فيما بعد تعليقًا عليه وانتقد بعض أراء بطليموس الواردة فيه.

ذكر ابن النديم في "الفهرست" أن البتاني بدأ رحلته مع الرصد الفلكي عام (٢٦٤هـ-٨٧٨م).

ومن الثابت أن البتاني أقام فترة بمدينة الرقة، وأجرى بها قسمًا من أرصاده التي تواصلت حتى عام (٣٠٦هـ-٩١٨م) وفقًا لما ذكره ابن النديم، وأنه أقام فترة أخرى بمدينة أنطاكية بشمال سوريا حيث أنشأ المرصد الذي عرف باسم "مرصد البتاني".

وعمومًا كان عصر البتاني، عصر ازدهار علم الفلك الإسلامي وعصر تتابع الإنجازات العلمية الإسلامية في مجال هذا العلم. والجدير بالذكر أن البتاني قد نشأ في عائلة جُلّ أفرادها علماء، فهو أحد أحفاد العالم الكبير "ثابت بن قرة" (ت ٢٨٨هـ-٩٠١م).

إنجازات البتاني العلمية

حقق البتاني إنجازات بارزة في علم الهيئة (الفلك)، بالإضافة إلى إنجازاته في العلوم الرياضية (حساب المثلثات، والجبر والهندسة) والجغرافيا. ونظرًا لروعة إنجازاته الفلكية، حاز لقب "بطليموس العرب" تشبيهًا له بالعالم الفلكي والرياضي والجغرافي السكندري "كلوديوس بطليموس" الذي عاش في القرن الثاني الميلادي.

والبتاني يعرف في الغرب باسمه المحرف "ألباتيجنوس" (Albategnius) و"ألباتيجين" (Albategni).

إنجازات البتاني في علم الفلك

أهم إنجازات البتاني الفلكية، أرصاده الصحيحة التي تعد أدق ما أجراه الفلكيون العرب من أرصاد، ومن أدق الأرصاد التي أجريت حتى القرن السابع عشر، الأمر الذي ما زال يثير دهشة وإعجاب علماء الفلك، نظرًا لافتقار البتاني للآلات الفلكية الدقيقة التي توافرت في القرنين الماضيين، ولا نقول ما هو موجود منها الآن! وفي إطار تلك الأرصاد الصحيحة، رصد البتاني زاوية الميل الأعظم، وقاس موضع أوج الشمس في مسيرتها الظاهرية فألفاه قد تغير عن القياس الذي أجراه بطليموس في القرن الثاني الميلادي. وهذه هي أهم إنجازات البتاني في الفلك.

- صحح البتاني قيمة الاعتدالين الصيفي والشتوي.
- حسب قيمة ميل فلك البروج على فلك معدل النهار فوجدها (٣٥) دقيقة و(٢٣) ثانية. والدراسات الفلكية تبين لنا أنه لم يخطئ إلا في دقيقة واحدة حسب طول السنة الشمسية بدرجة عالية من الدقة، وبخطأ مقداره دقيقتان واثنتان وعشرين ثانية فقط.
- أجرى أرصادًا دقيقة للكسوف والخسوف. اعتمد عليها فلكيو الغرب في حساب تسارع القمر أثناء حركته خلال قرن من الزمان.
- برهن على احتمال حدوث الكسوف الحلقي للشمس. وفي ذلك مخالفة وتصحيح لرأي الفلكي السكندري بطليموس.
- حقق مواقع عدد كبير من النجوم، وصحح بعض نظريات حركات القمر وكواكب المجموعة الشمسية.
- توصل إلى نظرية قوية الأسانيد، توضح وتفسر أطوار القمر عند ولادته.
- أوضح البتاني حركة الذنب للأرض.

إنجازات البتاني في حساب المثلثات

- وصل البتاني إلى بعض المعادلات الأساسية والحلول الهامة في علم حساب المثلثات الكري (Spherical Trigonometry)، وهو العلم الرياضي الذي أسهم إسهامًا كبيرًا في ارتقاء علم الفلك.
- البتاني هو أول من استبدل "الوتر" الذي كان بطليموس يستعمله بـ"الجيب"، وهو إحدى النسب المثلثية ويساوي حاصل قسمة طول الضلع المقابل للزاوية على وتر المثلث القائم الزاوية.
- توصل البتاني إلى معادلة جبرية لحساب قيمة الزاوية بمعلومية النسبة بين جيبها وجيب تمامها.
- البتاني هو أول من حسب الجداول الرياضية لنظير المماس.
- البتاني هو من أوائل العلماء المسلمين الذين استخدموا

الرموز في تسهيل العمليات الرياضية.

البتاني يصحح رأي بطليموس

كان الفلكيون قبل البتاني وعلى رأسهم بطليموس، يقولون بثبات ميل حركة أوج الشمس بحساب دائرة الفلك، إلى أن جاء البتاني فبيّن أن الميل يتغير مع الزمن، وأن أوج الشمس والتباعد المركزي لمسارها قد تغير منذ عهد "أبرخس"، على الرغم من أن بطليموس أكد ثباتها. ولم ينس البتاني أن يوضح أن حركة أوج الشمس هي حركة الاعتدالين، ومن ذلك أوجد أن طوال السنة المدارية هو (٣٦٥) يومًا و(٥) ساعات و(٤٦) دقيقة و(٣٤) ثانية، أي بخطأ نقصانٍ مقداره دقيقتان و(٢٢) ثانية. بينما كان خطأ بطليموس بزيادةٍ مقدارها (٦) دقائق و(٢٦) ثانية؛ كما أنه أوضح كيفية تغير القطر الظاهري للشمس والقمر، مثبتًا إمكانية حدوث الكسوف الحلقي للشمس، بعكس ما كان يظنه بطليموس. وقد استخدم البتاني في إثبات ذلك أجهزة فلكية من صنعه، منها جهاز لقياس الارتفاع الزاوي للشمس. هذا الجهاز الذي يتألف من عامود شاقولي طوله موضوع على مستوى أفقي يقاس عليه طول ظل هذا العامود.

مؤلفات البتاني

ألف البتاني عددًا كبيرًا من المؤلفات، تضمنت أرصاده الدقيقة ومقارناته بين التقاويم المعروفة لدى الأمم المختلفة (الهجري، الفارسي، الميلادي، القبطي)، وأوصافه للآلات المستخدمة في عمليات الأرصاد الفلكية وطرق صناعتها. ومن أهم مؤلفات البتاني: كتاب معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك، ورسالة تحقيق أقدار الاتصالات، وشرح المقالات الأربع لبطليموس، وكتاب تعديل الكواكب، وكتب ورسائل في علم الجغرافيا، وكتاب الزيج الصابئ أو زيج البتاني.

و"الزيج" هو أهم كتب البتاني العلمية، وضعه عام (٢٨٧هـ-٩٠٠م) على أساس أرصاد قام بها في الرقة وأنطاكية في العام نفسه، متخذًا "زيج الممتحن" ليحيى بن منصور مرجعًا له.

ويعد "الزيج الصابئ" أهم وأصح الأزياج المعروفة التي أثمرتها الحضارة الإسلامية، وسمي بـ"الزيج الصابئ" نظرًا لانتماء البتاني إلى طائفة صائبة حران، الذين عدّهم الرسول ﷺ ضمن أهل الكتاب قبل أن يسلموا.

ويشتمل "الزيج الصابئ" على مقدمة، وسبعة وخمسين فصلًا، ضمّنها البتاني الكثير من أرصاده الفلكية وأفكاره ونظرياته في علم الفلك. وقد ترجم الكتاب إلى اللاتينية أكثر من مرة في القرن الثاني عشر، كما أمر "الفونسو العاشر" في "قشتالة" بنقله إلى الإسبانية، وأطلع عليه كبار الفلكيين الأوربيين ومنهم "كوبرنيك" (Copernicus) في القرن السادس عشر الميلادي.

شكلت جداول البتّاني الفلكية -المترجمة إلى اللغة اللاتينية- ركائز علم الفلك لقرون عدة، ومع ذلك فالبتاني معروف أكثر في تاريخ الرياضيات باعتباره أول من أدخل الجيب وجيب التمام بدلًا من الوتر في الحسابات الفلكية وحساب المثلثات.

وفي عام (١٨٩٩م) طبع الزيج الصابئ بـ"روما"، بعد أن حققه "كارلو نللينو" عن النسخة المحفوظة بمكتبة الاسكوريال بإسبانيا. ويضم الكتاب أكثر من ستين موضوعًا أهمها: تقسيم دائرة الفلك وضرب الأجزاء بعضها في بعض وتجذيرها وقسمتها بعضها على بعض، معرفة أقدار أوتار أجزاء الدائرة، مقدار ميل فلك البروج عن فلك معدل النهار وتجزئة هذا الميل، معرفة أقدار ما يطلع من فلك معدل النهار، معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك، معرفة أوقات تحاويل السنين الكائنة عند عودة الشمس إلى الموضع الذي كانت فيه أصلًا، معرفة حركات سائر الكواكب بالرصد ورسم مواضع ما يحتاج إليه منها في الجداول في الطول والعرض.

عرف البتاني قانون تناسب الجيوب، واستخدم معادلات المثلثات الكرية الأساسية. كما أدخل اصطلاح جيب التمام، واستخدم الخطوط المماسة للأقواس، واستعان بها في حساب الأرباع الشمسية، وأطلق عليها اسم "الظل الممدود" الذي يعرف باسم "خط التماس".

البتاني في عيون علماء الغرب

اعترف الفلكي الشهير "إدموند هالي" بدقة أرصاد البتاني، واعترف بذلك أيضًا "كاجوري" في كتابه "في تاريخ

الرياضيات"، كما أشار مؤرخ العلم "جورج سارتون" إلى البتاني بإعجاب شديد باعتباره أعظم الفلكيين المسلمين. واعترف المستشرق الإيطالي "نللينو" أن أرصاد البتاني في الزيج الصابئ، كان لها أعظم الأثر على تطور علم المثلثات الكروية في أوروبا. وقال عنه "جوزيف شاخت" في كتابه "تراث الإسلام": "يعتبر البتاني مبرزًا بين جميع الفلكيين العرب والمسلمين. فقد وضع جداول الزيج الصابئ، وقام بأرصاد عديدة لها جانب كبير من الدقة لدرجة أنه استطاع إثبات حدوث الكسوف الحلقي للشمس". وبعد ذلك بعدة قرون، تمكّن "دنثورن" (Dunthorne) بالاعتماد على أرصاد البتاني من تحديد تسارع القمر في حركته حول الأرض.

وعن البتاني ذكرت دائرة المعارف الإسلامية الإنجليزية: "البتاني فلكي ورياضي عربي مشهور، ويعتبر أحد أعلام رجال الفلك في العالم، ولد في "بتان" بنواحي "حران". وقد أسهم في وضع أساس علم المثلثات الحديثة ووسع نطاقها، واكتشف الكثير من حقائق علم الفلك، ولم يُعلَم أحدٌ في الإسلام بلغ مبلغ البتاني في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركتها. وهو أول من اكتشف "السمت" و"النظير" وحدد نقطتهما في السماء، وعني برصد الكسوف والخسوف، وصحح بعض نتائج بطليموس الإسكندري".

ولمكانة البتاني العلمية، أطلق علماء الفلك الغربيون اسمه على أحد سهول القمر (Albategnius). كما ذكره معجم ماكميلان لعلم الفلك ضمن قائمة مشاهير علم الفلك عبر التاريخ. وفي كتابه "The Spirit of Islam"، أي "روح الإسلام" يقول المفكر الإسلامي الهندي "سيد أمير علي" عن البتاني: "شكلت جداوله الفلكية -المترجمة إلى اللغة اللاتينية- ركائز علم الفلك لقرون عدة، ومع ذلك فالبتاني معروف أكثر في تاريخ الرياضيات باعتباره أول من أدخل الجيب وجيب التمام بدلًا من الوتر في الحسابات الفلكية وحساب المثلثات". ويعتبر كتاب "الزيج الصابئ" واحدًا من أهم مائة كتاب في التراث العربي الإسلامي الكريم، وأهم كتاب فلك عربي إسلامي، لأن القائمة التي عددت المائة كتاب، لم تحو من كتب الفلك العربية الإسلامي شيئًا غيره. ■

(*) باحث في التراث العربي والإسلامي / مصر.

كلاليب الشيطان

الدنيا في كُلاَّب الشيطان عالقة،
وكثيرون إلى ظلماته يُجَرّون،
وبنيرانه يحترقون،
والغافلون اللاّعبون،
في لَهْوهم مشغولون...
ولكنَّ بصيص نور في الأفق قد بدا،
لائحًا للنظر،
قدسيَّ المطلع، نورانيَّ المصدر،
عسانا إليه ننظر، وإليه نتشوف..!

* * *

أ.د. عماد الدين خليل*

الصراط

عبر كل موقف يتبين لكل ذي عقل، صدق مقولات كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ، وحجتها وإحاطتها، وقدرتها على الامتداد في الزمن والمكان لكي تغطي كلَّ حالة وتعطي جوابها لكل معضلة وتستجيب لكل نداء.

إنها كلماتُ الله ﷻ، تصدر عن علمه المطلق الذي خلق السماوات والأرض وبعث الحياة والإنسان وأحاط بها جميعًا.. فهي تجيء لكي تطابق حاجات النفس والمجتمع في كل زمان ومكان، ولكي تقدم الصيغ المثلى لكل موقف. وما عداها لا يعدو أن يكون مجرد محاولات تخطئ كثيرًا وتصيب قليلا. وهي حتى في حالة إصابتها لا تقدر على تقديم الصيغة الأكثر كمالا.. وتبقى من ثم تحمل عجزها وقصورها ونسبيتها وتقطعها وعدم قدرتها على الامتداد.

إن القرآن الكريم يقولها بوضوح كامل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾(الأنعام:١٥٣).

وتلك هي مهمة الدين في هذه الحياة؛ أن يمنح الإنسان الصراطَ المستقيمَ وأن يشيرَ إليه بكلتا يديه ويسلط عليه الأضواءَ من أجل تمكين الإنسان من الوصول إلى أهدافه من أقرب طريق وأيسر طريق.. ذلك أنه طريق الوفاق مع نواميس الطبيعة وقوانين العالم وسنن الكون.. والوفاق يمنح الإنسان قدرة أكبر، على الفعل والاجتياز والتركيز واختصار حيثيات الزمن والمكان، والانطلاق إلى الأهداف الكبيرة بالعزم الذي تمنحه العقيدة، والطاقة التي يبعثها هذا الانسجام والتناغم مع قوى الوجود على امتداده الفسيح.

ذلك هو الصراطُ المستقيمُ الموصولُ بالله، الممتدُ بين الأرض والسماء، بين الإنسان والكون.. وليس بعد هذا الصراط سوى السبل البشرية النسبية القاصرة القلقة المهزوزة التي لن تصل بالإنسان إلى أهدافه المرتجاة، والتي بسبب من عجزها وارتجاليتها تُحدث دوما انشقاقا بين قدرات الإنسان ومطامحه، وبين سنن العالم ونواميس الكون والوجود.. حيث يؤول الأمر إلى ارتطام محزنٍ بين الطرفين ويؤدي إلى تفتتِ الطاقات، وهدر الإمكانيات وتدميرها، وصدِّ الإنسان عن تحقيق توحده وانسجامه وقدرته على الفعل والإنجاز والعطاء.

وما أكثر ما تفرقت السبل بالأمم والجماعات والشعوب، وما أكثر ما قاد هذا التفرق إلى سفكِ أنهار من الدماء وتجريع البشرية بحرًا من الدموع والمتاعب والمنغصات والآلام.

ولماذا هذا كلُّه والطريقُ واضحٌ.. بيّنٌ.. هناك.. يتمثل بصراط الله المستقيم؟

ويقينًا فإن اليوم الذي ستطبق فيه التجربةُ المُرَّة على أعناق بني آدم، وترغمهم على أن يرجعوا إلى الصراط سيجيء.. يقينًا سيجيء..

فمن خلال التجربة التي تكشف الزيفَ من الحقيقةِ، وتفرز الذهبَ من الترابِ سيتبين صدقُ مقولات القرآن، وسينضوي إليها الإنسان المتعبُ، الممزقُ، المكدود في يوم قريب أو بعيد. وصدق الله العظيم القائل: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣).

لقد ظهر الفساد في البّر والبحر بما كسبت أيدي الناس عبر تاريخهم المترع بالمرارة والشقاء والتعاسةِ والأحزان، ليذيقَهم الله الثمار المُرّة لبعض الذي عملوا لعلهم يرجعون.

وسيرجعون يقينًا، لأنهم لن يجدوا غير الإسلام من يعصمهم من الغرق في بحر الفسادِ الكبير، وينقذهم من خضمّه المخيف العميق. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.

أ.د. حسن الأمراني*

بلبلٌ ووَرْدة

البلبـلُ الحيْـرانُ طـال عَناؤه / مـن بعدما مـلأ الوجـودَ غِناؤه
أزرَى بـه طـول البعـاد وإنّمـا / قـرب الحبيب دواؤه وشـفاؤه
حبست يدُ الصيّاد طِيبَ نشيده / ظلمًـا، فغـاض بهـاؤه ورُواؤه
والـوردُ كـفَّ عبيـرَه لمّـا رأى / صوتَ الحبيبِ ذَوَى، وغاب نداؤه
قلبان مؤتلفـان ضمّهما الجَوَى / زمنًـا ولفّهُمـا هنـاك رداؤه
والغابـة الخضراء كانـتْ ملعبًا / وجـهُ الصباحة أرضه وسـماؤه
وهمـا بـه يتنعمـانِ فـلا ترى / ذئبًـا ينغّـص ما يطيـب عواؤه
قد عاهـدا الرّحمـنَ ألا ينقضا / عهْـد المحبّـة أو يُكَـدّر ماؤهُ
شهدتْ طيورُ الغابِ ميثاقَ الهوى / وتقبّلتـه أُسُـودُه وظِبـاؤه
لم تشـهد الغابـاتُ أبْهى منظرًا / ممّـا يخـطّ عبيرُهـا ودعـاؤه
فـإذا الحمائـم والنسـور توائمٌ / والغـاب طـاب زئيـرُه وثغاؤه
وإذا الجميـع أحبّـةٌ، لا فرقـةٌ / سـرّا تؤجّـج أمرَهـا أعـداؤه

* * *

مـا كان أطيبهـا مُنىً معْسـولةً / للعاشـقين تهدّلـت أفياؤهـا
الوردة الولهى بهـا (عطّارها)[**] / والبلبل الشـادي بها (ميلاؤها)
والطّيْـر صافّـاتٌ تُسَـبّحُ ربّها / فتفيـضُ مـن خيراتـه أهراؤها
أكْـرمْ بهـا نُعْمى تـرف ظلالُها / فبـكلّ نُعْمى تُفْتـدى نعماؤها
الحـقّ معشـوقٌ، وعاشـقُ بابه / طَـرّاقُ ليْـلاتٍ بهـا مشّـاؤها

* * *

لكـنّ صيّـادًا أتـى متربِّصًـا / لـم يُرضِـهِ جمْعٌ يفيض إخاؤه
قد جـاء من خلف البحارِ يقودهُ / حقـدٌ تَوَقّـدَ شـرُّه وبـلاؤهُ
حشَد الحشودَ مزمجرًا: من لم يكنْ / معنـا، فحـقٌّ أن تـراق دماؤه
أأعيـشُ في ضنْـكٍ وينْعَم بلبلٌ / تقضـي بغيـر شـريعتي أبناؤه؟
هلْ سـيّدٌ في الكَوْنِ غيري آمِرٌ؟ / أنا سـيّدُ الأكـوانِ جـلّ ثناؤه
من قال للمسـتضعفين تذمّروا؟ / النّسْـرُ يغْضـبُ أن يضام هواؤه
سـأُحرّقُ الغاباتِ، أجعلها لظىً / لـنْ تسـتريحَ بظلّهـا آلاؤه



النفطُ مهمازي إذا احتدم الوغى … لا الصّرح يُستبْقَى ولا بنّاؤهُ
والقحْطُ جندي، أستذلّ به الورى … لن ينفع الليثَ الأسيرَ إباؤه
لن يهدم الغاباتِ إلا جذْعها … والسدّ يغرق إن تَفجَّر ماؤه
البلبل الحيرانُ أصبح نائيا … عنه الحبيب، فهل يحين لقاؤه؟
أم هل تُعيد العهدَ أزمنةُ اللظى؟ … ويعود للغاب الجميل رواؤه؟

* * *

وتنادت الأطْيارُ: هلْ من مُخْرجٍ؟ … والقولُ ينظمُ عِقْدَه فصحاؤها
يا هُدْهُد البشرى، ألا من يقْظةٍ … تَأْتيكَ عن أهل الحِجا أنْباؤها؟
قال السميرغُ والغيوبُ تحوطه … فكأنّما أصداؤه أصداؤها:
يا غُمّةً لو أنّنا قُمنا لها … بمحبّةٍ لتكشّفتْ ظلْماؤها
وإذا تفرّقت القُلوبُ مودّةً … لم يَثْنِها عن جهلها حُكَماؤها
يا غابةً آلامُها مبسوطةٌ … بين المحيطين ارتمتْ أرجاؤها
سيعود بلبلكِ الشريدُ إلى الحِمى … وإن استطالَ خريفُها وشتاؤها
سيعود بُلْبُلُك الشّريدُ مُغَرّدًا … ويَرفُّ من ألْحانهِ طلقاؤها
وتعودُ وردتنا الجميلةُ طيبُها … متضوعٌ، ونديّةٌ أنداؤها
هي أمّةُ الطّير استفاقت للعُلا … لا صَقْرها أغضى ولا ببغاؤها
شعْبٌ تنادوا مصبحينَ أعزّةً … يبغي الحياة رجالها ونساؤها
فسّرْ لنا الرؤيا فأنت حكيمها … وعليمها وإليك آل دهاؤها
الوردة المعطارُ شرعةُ أحمدٍ … وعبيرها في الكائناتِ ضياؤها
والبلبلُ المأسورُ أمّة أحمدٍ … ولواؤه في العالمين لواؤها
الوردة المعطار روحٌ سابحٌ … والعندليبُ لباسها وغطاؤها
والوردة المعطار سرّ بقائه … والبلبل المرآة منه جلاؤها
والآثمُ الصيّاد حصّنَ سجنَهُ … أسوارهُ بلغ المدى أنباؤها
لكنّ هذا السور ليس مهدّما … إلا إذا الزفراتُ حان جلاؤها
فليصبح الجرحُ المضمّخ مهرها … ولكلّ عِرسٍ في الوجود حباؤها
أرسلْ أنينك أيها الشادي فإنْ … سالتْ دماكَ ستستعاد ذِماؤها
ولتملأ الليلَ المحصّنَ آهةٌ … منْ وردةٍ وليستمرَّ بكاؤها
فالشّمْسُ تكشفُ بعْد ليلٍ سرّها … فيعمّ وجهَ العالمين ضياؤها

(*) رئيس تحرير مجلة "المشكاة" / المغرب.

(**) عطارها: فريد الدين العطار. ميلاؤها: عزة الميلاء.

والبلبل في الأنشودة الهندية مؤنث والورد مذكر.

د. مجدي سعيد*



أزمة الإصلاح الإسلامي

ا المطالع للمشهد العربي العام لابد وأن يدرك استقراءًا أن جهود الإصلاح في العالم العربي باتت في أزمة، تعاني انسدادًا في الأفق، وإحباطًا متكررًا في الجهود، مما جعل الحالة العامة لبلدان العالم العربي، تراوح مكانها إن لم تكن تتراجع إلى الخلف. ونحن نعني هنا، جهود الإصلاح المنطلقة من رؤى إسلامية ووطنية صرفة، والتي تقوم بها في الأغلب حركات أو مؤسسات أو أفراد متفرقين. فما هي أسباب تلك الحالة؟ وما هي سبل الخروج منها؟

أسباب أزمة الإصلاح

ما أطرحه من أسباب يمكن أن تعد في حد ذاتها، مظاهر وتجليات يمكن أن نجد أسبابًا لها بدورها، وتلكم طبيعة الظاهرة الاجتماعية التي يصعب تبسيطها وتسطيحها. وأسباب الأزمة من وجهة نظري تتمثل فيما يلي:

أ- وقوع حركات وجهود الإصلاح أسيرة لرد الفعل: فحركات الإصلاح في العالم العربي، هي أشبه بمُلاكم أوقعه خصمه في زاوية من الحلبة وأفاض له في اللكمات، فما كان من ذلك المُلاكم المحصور إلا أن رد بلكمة هنا ولكمة هناك، لكنه لم يستطع أبدًا أن يُخرج نفسه من وضعية المحصور في الركن، المحكوم عليه بالرد دائمًا لا المبادرة بالفعل. والمبادرة والمبادأة تأتي من قدرتها على فرض استراتيجيتها على الخصم وليس العكس.

ب- وقوع تلك الحركات والجهود أسيرة للتفكير المثالي، سواء في ذلك استراتيجيات الإصلاح التي تتبناها، أو فقه الواقع الذي تبني عليه تلك الاستراتيجيات، والذي لا يقدّر بشكل صحيح مقدار القوة الذاتية إزاء القوى الداخلية والخارجية المناوئة لذلك المشروع الإصلاحي، ولا يتخذ التدابير اللازمة التي يقتضيها ذلك الفقه الواقعي، مما ينتج عنه الاندفاع في مشروعاتهم الإصلاحية مصطدمين بالواقع المناوئ، معتبرين أن المعوّقات التي يتعرض لها المشروع هي أمر طبيعي، وأن المعاناة التي يعيشها أفرادها هي "ضريبة الإصلاح"، وكأن وضع الاستراتيجيات الملائمة لنجاح

عمليات الإصلاح، وصولا إلى الرسالة الأساسية للإصلاح، واتخاذ التدابير لتجنب الدخول في معارك جانبية تستنزف القوى قبل الأوان، أمرًا غير مرغوب فيه، أي كأن هناك عشقًا "للمازوخية"، أي تعذيب الذات، لا بل وعشقًا "للسادية" وهي عشق تعذيب الشعوب، والتي تذبح القوى المفسدة والمستبدة آمالَها وأحلامها في النهضة والاستقلال الحقيقي، بدعوى تعرض مراكزها للخطر الدائم والداهم من حركات الإصلاح تلك.

جـ- وقوع تلك الحركات والجهود أسيرة لتقديس الوسائل التي تتبناها، وإن كانت تلك الحركات، لا تقول بالقدسية صراحة، بل إن أدبياتها ربما تنفي تلك القداسة، إلا أن الممارسة العملية، ورد الفعل العنيف على أي انتقاد يطال هذه الوسائل -ولو بدافع النصح- يقول عكس ذلك، مع أن الأصل أن الغايات هي الثوابت، وأن الوسائل يمكن أن تكون من المتغيرات بتغير المكان والزمان والأحوال، ما لم تعارض نصًا ولا مصلحة عامة، وأن مَن ابتدعوا تلك الوسائل حين ابتدعوها، كانوا مجتهدين وفق رؤيتهم لمتطلبات الواقع وإصلاحه. فلابد إذن حينما تتغير الأحوال وتتبدل، أن ننظر في وسائلنا نظر المجتهد.

د- تبعثر جهود الإصلاح خارج الكتل الأساسية: فالمنطقة تشهد حالة من الحراك والمبادرات -الشبابية بالأساس- في جميع مجالات الحياة، خاصة في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين. وهي مبادرات وحالة حراك، تأتي في الأغلب من خارج الكتل الإصلاحية أو من الراشحين أو المتساقطين منها. وهي المبادرات والحالة الحراكية التي ينبغي إذا كان لنا فقه لما نعيشه، أن نعظم منها حتى تصير أنهارًا تحمل مياهها سفن الإصلاح إلى المصب، فهذه هي الاستراتيجية، وهذا هو الأمل. لكن المرء يتساءل؛ أنى لنقاط الماء المبعثرة والتائهة -أحيانًا- تلك، أن تصب -في نهاية الأمر- في النهر العام للإصلاح والتنمية والنهضة، كي يروي ظمأ حياتنا العطشى التي جفت فيها الحلوق من لظى الإفساد والاستبداد الذي نعيشه.

خارطة طريق للخروج

وحتى لا يظل حديثنا لعنا للظلام، نقدًا أو جلدًا للذات الإصلاحية، دون أن نوقد شمعة في الطريق، نقول بأنه يجب على الساعين للإصلاح أن:

أ- يدرسوا الواقع بتحدياته دراسة القوي الأمين، دراسة لا تبالغ في قوة الذات حتى تصاب بالزهو، ولا تتغافل عن تحديات الواقع وقواه المناوئة للإصلاح داخليًا وخارجيًا، حتى لا تصاب الذات بالاستهتار بالعدو الجاثم أو المتربص؛ ودراسة لا تبالغ في تقدير تلك القوى المناوئة بما يصيب الناس باليأس والإحباط.

ب- يدرسوا تجارب الإصلاح الجزئي منها والكلي، والعالم مليء بها.. وتجارب ذلك الإصلاح (الإسلامي) ماثلة حولنا بأشكالها الثورية (الإيرانية) والانقلابية (السودانية) والديمقراطية (التركية)، والمقاومة (اللبنانية والفلسطينية)، بما يسمح باستخلاص الدروس المستفادة من حسن قراءة الواقع. هذا على المستوى السياسي، أما على المستويات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتنموية، فإن بطون المجتمعات في بلادنا وفي العالم شرقه وغربه وشماله وجنوبه، ملآنة بالدرر من الحكمة التي يمكن لمن أراد أن يتلمسها.

جـ- يضعوا استراتيجيات جديدة للعمل، يراعى فيها فقه الواقع بتحدياته وعطاءاته، استراتيجيات لا تجعل منا ذبائح كلما قامت على قوائمها "عرقبها" الجزارون بسكين باردة؛ استراتيجيات تهدف إلى تعظيم النهر واتساعه وعمقه خارج سفن الإصلاح.

د- ينشروا الوعي ويلملموا المبعثر من حبات الماء المتناثرة من الفعاليات والمبادرات الإصلاحية المبعثرة، حتى تصنع نهيرات صغيرة لا يُحدث صوتها جلبة ولا ضجيجًا، حتى تجد طريقها إلى نهر التنمية والنهضة والاستقلال الحقيقي لأمتنا.

هـ- يدركوا أن لحياتنا آلاف الجنبات، التي تحتاج لأن تتوزع الجهود عليها بقدر، فلا تترك جنبًا ولا تزر ثغرة تهدم ما يحاولون بناءه على مدار السنين والعقود القادمة، ولكن لتلك الجنبات سلمًا للأولويات وأحجامًا متفاوتة يجب أن تراعى.

و- يتعلموا فقه الأولويات والموازنات، والمصالح والمفاسد والمقاصد وتنزيل ذلك الفقه مزجًا مع فقه الواقع، ليصنعا معًا تدبيرًا وتدبرًا قبل وضع الأقدام في مواضع تعيد المسيرة إلى أولها، ولا تصل بنا إلى غايات الأمة مطلقًا وإن طالت السنين فالمتربصون كثر وحيلهم لا تنفد.

ز- يتلمسوا طريق العمل تدرجًا وصبرًا، فلم تُخلق الدنيا في ساعة، ولن تتغير في ساعة، فالزمن جزء من العلاج كما يقولون. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

د. سلمان العودة*

نقد الذات

كان يسير في مركبته بعكس الاتجاه، ويشاهد أرتال السيارات إلى جواره ماضية في طريقها. وحين التقط صوت الجهاز اللاسلكي يقول فيه أحد رجال المرور للآخر: "هنا سيارة تسير عكس الاتجاه"، جعل يقلّب رأسه ويتأفف قائلا: "ليتها سيارة واحدة، كل السيارات سائرة عكس الاتجاه".

حين حكيتُ هذه الطرفة لابنتي، عززتها بقصة الرجل الذي اشتكى للطبيب أنّ زوجته ضعيفة السمع. فطلب إليه الدكتور أن يخاطبها من بعيد، ثم يقترب شيئًا فشيئًا حتى يعرف مقدار الضعف في سمعها.

خاطبها سائلا عن وجبة العشاء ولم يظفر بجواب، فاقترب وخاطبها أخرى فثالثة...

وأخيرًا وقف على رأسها وسألها عن وجبة العشاء فردت قائلة: "خمس مرات أقول لك: دجاج بالفرن"، لم يخطر في باله أن الضعف في أذنه هو!

حين يتصل بك صديق ويحدث تشويش في الخط، يتصرف تلقائيًّا وكأن الخلل في جهازك، أو المشكلة في الأبراج القريبة منك. ولا شك أننا سنكون سعداء حين نشرح معاناتنا لأحد، فيبدأ في التعاطف معنا وإلقاء اللوم على الآخرين، بينما نعدّ من الخذلان أن يحاول تمرير رسالة هادئة مفادها أننا -ربما- نتحمل بعض المسؤولية، وأن الحل يبدأ من عندنا؛ وحتى حينما يتلو علينا القرآن: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾(آل عمران:١٦٥)، سنقوم بإيضاح المعنى بأن الخلل في الناس الذين يشتركون معنا في الانتساب للإسلام أو للوطن، وليس معناه أننا شخصيًّا شركاء في التبعة والمسؤولية.

يطرب الناس لمتحدث أو كاتب يهاجم الخصوم والأعداء، ويشتمهم ويفضح ألاعيبهم وخططهم وهو محق فعلًا. فمن شأن العداوة أن تفرز مثل هذه الخطط والحيل والألاعيب.

لكننا سنشيح بوجوهنا ونتمعر ونزمُّ شفاهنا، حين نجد الصوت يتعالى في نقد ممارساتنا، أو تحليل شخصياتنا، أو تفنيد بعض عاداتنا السيئة المستحكمة التي أصبحت جزءًا رئيسًا في طرائق تفكيرنا وسلوكنا الفردي، وتعاملنا الأسري، ونظامنا الاجتماعي.

سنسير خطوات يسيرة، ونتجرع رشفة مُرّة ونتظاهر بالروح الرياضية، ونعلن أننا نقبل النقد بصدر رحب، وأن الذي ينتقدنا خير من الذي يمدحنا.. لننكفئ بعد ذلك، ونلتف على الموضوع، مستنكرين حالة الإفراط في النقد، وأننا أصبحنا "نجلد" ذواتنا!..

مصطلح "جلد الذات" صحيح، ولكننا نستخدمه أحيانًا في غير محله، نستخدمه لتعثير المشرط الذي يتخلل جراحنا، ويضعنا أمام أخطائنا وعيوبنا وجهًا لوجه.

الذي ينتقد الأعداء يتحدث عن قضية مشتركة مُجمَعٍ عليها. فالجميع يصفق له ويثني عليه، لأنه يتحدث في منطقة آمنة لا خوف فيها، ولكن ربما أفرط وبالغ حين صوّر إخفاقاتنا وكأنها من صنع أعدائنا ولا يد لنا فيها.

أما الذي يكشف عيوبنا أو يحاول -ولو لم يحالفه التوفيق- فهو يضع يده على موطن العلة. وما كانت سهام الأعداء لتضرنا لولا أننا أتينا من قبَل أنفسنا، والله تعالى يقول: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾(آل عمران:١٢٠).

الواقع الذي نعيشه أفرادًا وأسرًا وجماعات ومجتمعات وحكومات، هو الشيء الذي نعبّر عنه بـ"التخلّف"، فلماذا نتلبسه ونتشربه ونتعصب له ونحامي دونه، ونعتبر أن من يريد فصلنا عنه مؤذيًا وجارحًا ومتهجمًا؟!

النقد ليس تشفيًا ولا تصفية حساب، لكنه طريق إلى الفهم والإصلاح والتدارك. وحين نكون مخلصين فيه، سندرك أن الحق هو أن نبدأ بأنفسنا ولا نجعلها استثناء، ولا نتعالى عن هذا الواقع وكأننا أوصياء عليه من خارجه.

دعني أقول.. ما الذي يجعلنا أحيانًا نقول نقدًا كهذا، ونهاجم أمراضنا وعللنا بقوة وشجاعة، ثم ننصرف وكأننا لسنا جزءًا من هذا الواقع المنقود.. هل نقدي يعني أنني بمنجاة ومعزل عن هذه الآثام الشائعة؟ عليّ حين أنتقد، أنْ أدرك أن النقد يتجه إليّ شخصيًّا مثلما يتجه للآخرين، وإلا فسيكون بغير معنى إذا كانت محصّلته أنني أنتقد لأثبت تفوقي على الآخرين وسلامتي من معاطبهم.

النقد ليس تشفيًا ولا تصفية حساب، لكنه طريق إلى الفهم والإصلاح والتدارك. وحين نكون مخلصين فيه، سندرك أن الحق هو أن نبدأ بأنفسنا ولا نجعلها استثناء، ولا نتعالى عن هذا الواقع وكأننا أوصياء عليه من خارجه: ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(فصلت:٣٥). ■

(*) عالم ومفكر وداعية / المملكة العربية السعودية.

صابر عبد الفتاح المشرفي*



أ.د. وهبة الزحيلي



أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي



أ.د. علي جمعة



أ.د. أحمد عبادي

هَدْي خير العباد

أول مؤتمر دولي لـ"حراء" في إسطنبول

في يومين من أيام إسطنبول المشمسة الصحوة، ووسط عبق التاريخ المجيد الذي أوحى به المكان "مركز الفرات الثقافي" بالقسم الأوروبي من إسطنبول، وفي حضور لافت لكوكبة عظيمة هائلة من علماء الأمة الإسلامية من تركيا ومن خارجها، وبمتابعة كثيفة لطلاب وطالبات العلم، ضاق عنها المكان فاضطروا إلى إكمال المتابعة عبر شاشات كبيرة خارج القاعات، أطلَّ الحبيب المصطفى ﷺ بهديه من قلب "حراء" التركية الناطقة بلغة أفصح العرب ليبعث في القلوب والأرواح "أملاً جديدًا"، في أن القرن الحالي والقرون القادمة ستولي وجهها شطر هَدْي خير العباد ﷺ.

ففي يومي السبت والأحد الموافقين للتاسع والعاشر من شهر أكتوبر/تشرين الأول لعام ٢٠١٠، جرت فعاليات مؤتمر دولي عنوانه "هَدْي خير العباد" بتنظيم مشترك بين مجلتي "حراء" و"يني أوميت" (الأمل الجديد) من قلب إسطنبول العاصمة التاريخية لتركيا، دعتا إليه علماء ومفكرين من أعلام الفكر الإسلامي من تركيا وخارجها منهم: مفتي الديار المصرية الأستاذ الدكتور علي جمعة، ورئيس الشؤون الدينية في تركيا الأستاذ الدكتور علي بارداك أوغلو، والأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، والأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي، والأستاذ الدكتور أحمد عبادي الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء بالمملكة المغربية.

في هذا الجو المعطر بأريج النفحات النبوية، افتتح القارئ التركي ذو الصوت الشجي "رضا كوناي"، فعاليات المؤتمر بأواخر سورة الفتح وأوائل سورة الحجرات، معلنًا من خلال البيان القرآني المعجز أن محمدًا رسول الله ﷺ وأن الله أرسله ﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ﴾ وأنه لا تقديم ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللهِ﴾.

وفي هذا الإطار الروحاني المشرق، حيّا الدكتور "أركون جابان" رئيس تحرير مجلة "يني أوميت" جموع الحاضرين ورحب بهم في بلدهم الثاني تركيا. وأوضح في كلمته؛ أن المجلة قد نظمت في الصيف الماضي مؤتمرًا بعنوان: "القرآن الكريم والحقائق العلمية" دعت إليه لفيفًا من علماء الأمة الإسلامية ومفكريها، ثم يأتي هذا المؤتمر اليوم ليمثل نوعًا من التكامل مع المؤتمر السابق، لأن هَدْي الحبيب المصطفى ﷺ كان التفسير الحي لكتاب الله ﷻ، وحياته التي عاشها بأحداثها وحوادثها؛ نموذجًا مثاليًا تستطيع البشرية أن تجد فيه العلاج الناجع لأدوائها، والحل الأمثل لمعضلاتها إلى أن تقوم الساعة.

وبفصاحته المعهودة وأدائه العذب الرائق، استهل المشرف العام لمجلة "حراء" السيد "نوزاد صواش" كلمته متمثلاً بأبيات


أ.د. علي برداك أوغلو



أ.د. خير الدين كارامان


د. أركون جابان


نوزاد صواش

شعرية مشهورة تنم عن براعة الاستهلال، حيث وقعت موقعًا حسنًا استعذبتها الآذان وطابت بها النفوس:

لله قوم إذا حلوا بمنزلة**حل السرورُ وسار الجودُ إن ساروا
تحيا بكم كلُ أرضٍ تنزلون بها**كأنهم في سماء الأرض أقمارُ
لا أوحش الله ربعًا من زيارتكم**يا من لكم في الحشا والقلب تذكارُ

ثم حيّا الحضور من تركيا ومن جميع أنحاء العالم وزفّ إليهم بشرى صدور "حراء" كل شهرين من أوائل العام القادم ٢٠١١ للميلاد. والجدير بالذكر أن هذه هي المرة الأولى التي تعقد فيها "حراء" مؤتمرًا لها في إسطنبول، بالرغم من تنظيمها لمؤتمرات تعريفية كثيرة في العديد من العواصم العربية والإسلامية.

ثم توالت الكلمات الافتتاحية من كلٍّ من الأستاذ الدكتور "راشد كوجوك" عميد كلية الإلهيات بجامعة مرمرة، والأستاذ الدكتور "شرف الدين كولجوك" الرئيس الثاني لوقف الديانة التركية، والأستاذ الدكتور "علي بارداك أوغلو" رئيس الشؤون الدينية في تركيا، وفضيلة الأستاذ الدكتور "أحمد عبادي" الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء بالمملكة المغربية، الذي افتتح كلمته بصلاة خاشعة على الحبيب المصطفى، ومناجاة خاضعة للمولى ﷻ وجلت منها القلوب فظهر أثرها في الجفون، وأوضح في كلمته أن النبي بشرٌ عبدٌ لله مثل البشر، غير أنه اصطُفي بعلم الله ليوحى إليه، وأن التأسي في القرآن المجيد يتم بالنظر إلى النبي المثال فبالنظر إلى الحال ثم العمل على الانتقال من الحال إلى المثال، ثم أردف "أن النبي ﷺ هو الوحدة القياسية الشاهدة التي تمثل حالة السواء في المجال الإنساني، والتي بالنظر الواعي إليها، يتم التعرف على الاختلالات التي في هذا المجال جمعًا وإفرادًا. بذلك يحصل إمكان العمل على ردها إلى حالة السواء.. وتلك نعمة من الله جلّى.. حتى إذا تمت إفادة الأمة من النبي ﷺ، فإنها بدورها تصبح وحدة قياسية على الصعيد الاجتماعي والحضاري، يمكّن التعرّفُ عليها من التعرّف على الاختلالات في هذه الأصعدة، ومن ثم يمكن التعرف على ما يلزم من العمل لردها إلى حالة السواء.

كما كان لافتًا للنظر، الحضور القلبي والروحي للأستاذ العلامة "محمد فتح الله كولن" من خلال كلمته التي ألقاها نيابة عنه مقدم البرنامج. فقد عبر عن أسفه لغيابه عن الحضور، وقدم خالص شكره لكل رجال العلم والفكر والخدمة الإيمانية، وكل من أسهم في عقد المجلس العلمي والعرفاني الذي يتم فيه تناول هَدْي روح سيد الأنام، ومفخرة الإنسانية والمرشد الأكمل وفريد الكون والزمان عليه أكمل التحايا. وأوصى بوجوب العودة إلى المنابع، والتغذي من مصادرنا الذاتية التي يمثلها الكتاب والسنة، حيث أحرزت الأمة في تاريخها موقعًا تغبط عليه فصارت قدوة للأمم في ظل تمسكها بهذا النظام الإلهي خاصة في جيل الصحابة. ونبه إلى خطورة الابتعاد عن تلك المنابع أو تقديمهما بشكل لا يليق بسموهما الروحي والأخلاقي.

ثم استعرض فضيلة الإمام العلامة الأستاذ الدكتور "علي جمعة" مفتي الديار المصرية في المحاضرة الافتتاحية "هدي النبي في التعايش مع الآخر"، حيث أوضح أن حياة المسلمين في عهد النبي ﷺ اكتنفتها أربع مراحل هي: العهد المكي، والعهد الحبشي، والعهد الأول والثاني في المدينة

المنـورة، وأن بقـاء المسـلم في أي مجتمع مّـا، لا يخرج عن هذه النماذج الأربعة، ومن ثم ينبغي علينا أن نسـتفيد اسـتفادة تامـة من كل هذه النمـاذج، باعتبار أنها التصرف الذي ارتضاه الله ﷻ كتطبيـق معصـوم لمـراده فـي هـذه الأرض؛ كمـا أكد على أن النبي ﷺ اسـتطاع التعايش مع الآخرين رغم اختلاف ظروفهم وأحوالهم وعقائدهم، وأن على المسـلمين اسـتلهام الدروس والعبر من حياته، والاستفادة من نظرته إلى الآخرين والأحداث، وإدارته للدولة وحياته التعبدية. ومع أن الموضوع في إطاره فقهي يغلب عليه طابع الاسـتدلال النقلي والعقلي، إلا أن الحضـور قـد رصدوا أكثـر من مرة حبًّا جارفًا وعشـقًا والهًا لقدوة السـالكين وقـرة عين العارفين الحبيب المصطفى ﷺ فضَحِـه لؤلؤ رطب ترقرق في مآقي فضيلته، فأذكرني ذلك قول الإمام الشـافعي: فقيهًا وصوفيًا فكـن ليسَ واحدًا... وما ذلك على فضيلته بغريب.

ثم بيّن الأستاذ الدكتور "خير الدين كارامان" في المحاضرة الافتتاحية الثانية، أن موقف أهل السنة والجماعة الذين يشكلون العمـود الفقـري للمسـلمين، والذين يمثلون الإسـلام بوجهه الصحيـح، يظهـر -بحـقٍ- مرونتهم فـي إقبالهم علـى الحوار مـع المجموعـات الإسـلامية الأخرى ومع غير المسـلمين، أو إقبالهـم علـى الحوار مع الإنسـانية جمعاء. كمـا أكد على ضرورة قراءة السيرة النبوية مع الأسرة يوميًّا ولو لمدة قصيرة.

ثم تتابعت الجلسـات في اليوم الأول، كل ينهل من معين بحـر النبـوة الذي لا ينضب على حسـب طاقته؛ فقد تم تناول جهـوده ﷺ فـي تثبيت دعائـم عقيدة التوحيد، وفقـه القدر من منظـور النبـوة، ثـم هديـه فـي الحكم علـى اعتقـاد الآخرين ووصمهـم بالكفر والإضـلال وبيان منهجـه المعتدل في هذا الجانـب. كما تم تنـاول هديه في العلاقة بيـن الفرد والدولة، وهديه في التعامل مع أصحاب الديانات والثقافات الأخرى.

وهكـذا انتهت جلسـات اليـوم الأول في الـروض الأنف للحبيـب ﷺ مـع شـعور غامر؛ بـأن روح الحبيـب المصطفى تضـيء الزمـان والمـكان، وجـال بالأذهـان طيـف خيالـه، وتشـخص للأبصار جمال صورته، كل على حسـب اسـتعداد روحه وصفاء قلبه، فمنّا من رآه أبًا يربت بيدٍ حانيةٍ على ظهره، ومنّـا من رآه رئيسًـا حاكمًا يسـوس رعيته بالعدل والمسـاواة ويتعامل مع الآخرين بالحكمة والسياسة، ومنّا من رآه مرشدًا هاديًـا يأخـذ بأيدينـا من مهـاوي الضلال وأوديـة التخبط إلى جـادة الطريـق، ومنّا من رآه حكيمًا يحل أعقد المسـتعصيات في فترة وجيزة، ويقدم وصفة علاج ناجعة لمريض كاد يشرف علـى الموت فأنقذه بعدما أعيا الأطباء واستيأسـوا من حالته، ومنّا من رآه كل ذلك أو يزيد.

وفـي مسـاء تلـك الليلة عقـد المنظمون أمسـية حاشـدة، ضمـت نخبـة هائلـة مـن أسـاتذة وعمـداء كليـات الإلهيات وشـيوخ وأئمـة المسـاجد الكبـرى بتركيـا وبعـض الضيوف العـرب.. تخللـت تلـك الأمسـية، أحاديث حـول أهمية عقد ذلك المؤتمر بإسـطنبول ودلالات ذلـك، والدور الذي تلعبه تركيـا فـي تحقيق عالمية رسـالة الحبيب المصطفى ﷺ ونشـر حقائـق الإيمـان والقـرآن وتبليـغ النـور المحمـدي الأعظم، إلى كل مكان تشـرق عليه الشـمس أو تغرب، من خلال فتح المدارس وإنشاء المؤسسات التربوية، وتقديم صورة حضارية مشـرقة عن الإسـلام وأهلـه. كما عبر المتحدثـون من عمداء الكليـات، عن سـعادتهم لالتقائهم بهـذه الكوكبة العظيمة من علماء الأمة الإسـلامية، وشـكروا المنظمين علـى إتاحة هذه الفرصـة للتواصـل معهم عن قـرب.. وآب الجميع إلى مأواه مغتبطًا بهذه المناسبة السعيدة.

ثـم اسـتأنف الجميع في صبيحـة اليوم التالـي التوافد إلى مائـدة الرحمن فـي ضيافة الحبيب المصطفـى ﷺ، حيث أطر الجلسـة الأولـى فيها فضيلة الأسـتاذ الدكتور أحمـد عبادي، وقـدم الأسـتاذين العالميـن الجليلين فضيلة الأسـتاذ الدكتور محمد سـعيد رمضان البوطي، وفضيلة الأسـتاذ الدكتور وهبة الزحيلي. وبعقلٍ نقي وقلبٍ تقي أفاد فضيلة الدكتور البوطي، أن الأمـة باختلاف مذاهبها وفرقها واختلاف عصورها، متفقة على "وجوب الاتباع وتجنب الابتداع"، وإنما وجه الاختلاف الذي تسرب بينهم يدور حول تفسير الاتباع وضوابطه، وحول معنـى الابتـداع والمـراد به والـذي يقوم علـى دلالات لغوية وأسـس بيانية لم تكن كلها محل اتفاق من علماء العربية؛ مما انبثق عنه نشـوء الفرق الإسـلامية والمذاهـب الفقهية، وطبقا لهذا الأسـاس ومع انتفاء أي دور للعصبية النفسية أو العوامل الخارجيـة فـي هـذه الاجتهـادات لا يمكـن لتلـك الفـرق أو المذاهب المختلفة أن تفقد هويتها الإسلامية، أو أن ينظر إليها على أنها تمارس في اجتهاداتها نوعًا من الشـذوذ. بخلاف ما لو استدعى الاجتهاد الجانح عن أهل السنة والجماعة خروجًا صريحًـا علـى ما ينص عليه القرآن، بعبـارة لا تحتمل التأويل أو علـى ما تواتر من حديث رسـول الله ﷺ بشـكل يسـتعصى على التأويل، فضلاً عما يكمن وراءه من عصبية ذاتية أو دعم









خارجي، وضرب أمثلة متنوعة لكلا الاجتهادين.

وبحماسته المعهودة وعقله الموسوعي نحى الدكتور الزحيلي باللائمة على أعداء الإسلام من الخارج والداخل، الذين يحاولون التخلص من السنة النبوية الشريفة، إما بإنكارها بالكلية أو بالتجزئة فيها، بعد ما يئسوا من التشكيك في القرآن الكريم لإعجازه، وذلك في عرضه الذي قدمه بعنوان "السنة النبوية الشريفة بين التجزئة والشمول". ثم أفاض في بيان حجية السنة النبوية الشريفة ومكانتها من التشريع الإسلامي، وساق العديد من الحجج والبراهين النقلية والعقلية التي لا تقبل النقض على وجوب التمسك بسنة خير العباد، وأوضح عددًا من أوجه خدمة السنة النبوية المباركة لكتاب الله ﷻ؛ ليكون في ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ثم توالت الجلسات تتناول كل محاضرة فيها غصنًا من الدوحة النبوية الغناء، وتبرز جوانب العظمة في الدعوة وصاحبها الذي تمثلت في شخصيته ﷺ كل جوانب الحياة. حتى إذا أناخ المؤتمر راحلته في الجلسة الختامية، داخل الجميع حزن شفيف؛ لسرعة انقضاء هذين اليومين القدسيين المباركين، وبكى من كان يمنعه الحياء من البكاء، ووقر في النفوس والأذهان أن اتباع هذي الحبيب المصطفى ﷺ هو الحل الوحيد للمّ الشعث ورأب الصدع، وأن الإكثار من ذكر الله ولزوم مراقبته، وتغذية القلب بمحبته، والمثابرة على ذلك يذيب الأنانيات ويقضي على حظوظ النفس وشهواتها ويجعل الأمة كلها لحمة واحدة، لأنها لا تلتقي إلا على رضا الله ومحبته.

لقد تعلمنا في هذين اليومين أنه لا يمكن الانجذاب نحو النبي لكي نروم اكتمال اتباعنا له إلا إذا أحببناه، وإذا أحببناه احترقنا بأنوار العشق، وإذا احترقنا بأنوار العشق انجذبنا، وإذا انجذبنا اقتربنا، وإذا اقتربنا تأدبنا، وإذا تأدبنا ازددنا اقترابا، فازددنا عشقا، فازددنا احتراقا، فازددنا حزما وجدية لا ينفرط عقد ذلك، إلا بلقاء الله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩). بهذه الكلمات المباركات أسدل المؤتمر ستاره، ولَمْلَمَ العلماء والباحثون أوراقهم التي نشروها لينفحوا المكان والزمان، بعطر سيد الأكوان والأزمان، واستعدت القاعة لتطفئ أنوارها مؤذنة بنهاية محتومة لكل بداية، وغادر الجميع المكان تتجلى في قلوبهم أنوار محبته، وتشرق في أرواحهم شمس عشقه، ولسان حالهم يقول:

فليت اليوم فيه كان دهرا**وليت العمر مد له فطالا. ■

(*) كاتب وباحث مصري.

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير

أجير إشيوك

eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني

مراد عرباجي

marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Kısıklı Mah. Meltem Sok.

No:5 34676 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة

تليفون وفاكس: +20222631551

الهاتف الجوال : +20165523088

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

Yaygın Süreli

الطباعة

Çağlayan Matbaası

İzmir - Türkiye

Tel: +90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم

pr@hiramagazine.com



التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 27

SUDAN
Phone: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone: +1 732 868 0210 Fax: +1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي:
شارع التخصصي مع تقاطع شارع الأمير سلطان بن
عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

وَنَحْنُ نَبْنِي حَضَارَتَنَا

مُحَمَّدُ فَتْحُ اللهِ كُولَن



- الانبعاث الحضاري في الأمة ما هي قواعده وأصوله؟
- لبنات هذا البناء من أين وكيف؟
- عوامل النهوض الحضاري كيف نشخصها؟ وكيف السبيل إلى استخدامها؟
- العقل الحضاري كيف نبنيه؟
- السلوك المتمدن كيف نشكله في النفوس؟



مركز التوزيع فرع القاهرة : ٧ ش البرامكة، الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة / مصر

تليفون وفاكس : 20222631551+ الهاتف الجوال : 20165523088+

www.daralnile.com



وردة في صحراء الثلج

وردة ضاحكة مستبشرة،
ساجدة لربها شاكرة...
أجواؤها ساحرة،
مفعمة الزرقة، شفَّافة الرِّقَّة،
وحولها، خريف يئنّ،
وصحراء من وَجدها تُجَنُّ،
وإذا ما الرحمة من الأعالي نزلتْ، وشآبيبَ أنداءٍ تحولت،
ذابت صحراء الثلج...
والإلحاد الكَفَّار، لموته يُفضي وإليه يجري،
فإذا الدنيا ربيعٌ يضحك،
وعطرٌ يضوع، وشذًى يفوح،
والكُلُّ في عيد..!

تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولار

ISSN 1306-1879
9 771306 187009 22
www.hiramagazine.com
Ocak-Şubat 2011 Sayı:22 Fiyatı: 5 TL.

